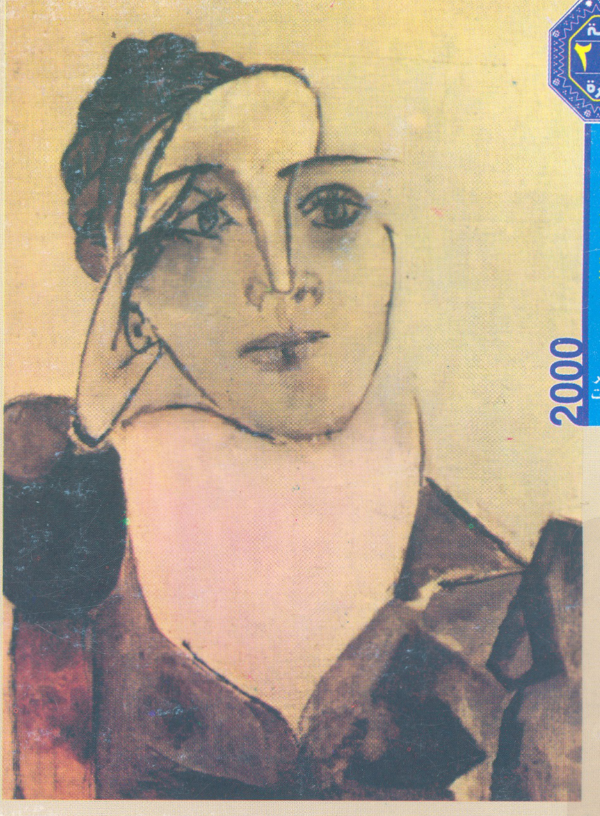


مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات 2000

الشباب

زكريا هاشم زكريا

آراء فلاسفة وعباقرة الغرب فى الإسلام



آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام

اسم العمل الفنى : دورا مار ١٩٣٦.

بابلو بيكاسو (١٨٨١ - ١٩٧٣)

فنان مصور أسبانى، عرف بأنه أعظم المصورين المعاصرين، وأغزرهم نتاجاً وقيمة، فهو لايبحث عن موضوعات أو معنى أو مضمون، وإنما يجد كل شيء بسهولة، فهو صاحب عقلية قوية وذهنية صافية متوقدة، يعتمد في تصميماته على التنظيم الهندسى للأشكال المجردة والتكعيبية(*)، وهو سريع التغير، يتنقل من أسلوب لأسلوب بحثاً عن كل ما هو جديد ومباغت، حتى أنه صمم الديكورات للمسرح، وعمل فى الحفر والنحت والخزف ورسوم الأطفال.

محمود الهندى

(*) التكعيبية: أسلوب ابتدعه بيكاسو وبراك عام ١٩٠٨، ويتلخص في تحويل الأشياء الطبيعية إلى أشكال تجريدية من خلال مسطحات شفافة وأخرى معتمة، كرد فعل هندسي لحركة الفوفية، وتعتبر التكعيبية والسريالية أهم حركتين في القرن العشرين.

آراء فلاسفة وعباقرة الغرب
فى الإسلام



زكريا هاشم زكريا



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(اعمال الشباب)

آراء فلاسفة وعباقرة الغرب في الإسلام

زكريا هاشم زكريا

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزار ة الشـباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

الاهـــــداء

قال الحق تبارك وتعالى :

((ان الدين عند الله الاسلام))

صدق الله العظيم

تقـــديم

ان الاستعمار يعلم علم اليقين ان سر قوة المسلمين وعزتهم فى دينهم ولغتهم · فجعل يحمل معوله فى حنق وقوة ويهجم به على حصون الاسلام ليقوضها فيزلزل ثقة المسلمين بانفسهم وبدينهم · لكن طال عليه الأمد · وأرهقه الكد والجهد ولم يبلغ الاستعمار ما اراد ·

وفى تاريخ المسيحية حروب شتى باسم السيد المسيح عليه السـلام · اريقت فيها انهـار الدماء فالحروب الصليبية اشعلها المسيحيون · لا المسلمون · وكثيرا ما زحفت الجيوش الأوروبية باسم الصـليب منحدرة من أوروبا الى الشرق لتحارب · وتسفك الدماء · وفى كل

مرة كان البابوات خلفاء السيد المسيح يباركون الجيوش المعتدية وهم يعلمون ان المسيحية تحظر القتال ·

ـ يقول السير « توماس ارنولد » فى كتابه ـ انتشار الاسلام :

وربما حل الاضطهاد والتنصير الاجبارى محل الدعوة الهادية الى كلمة الله · حتى كان الملك « أولاف ترايجفون » ينشر الدين المسيحى فى فيكين Viken (القسم الجنوبى من النرويج) بذبح الذين أبوا الدخول فى المسيحية · أو بقطع أيديهم وأرجلهم · أو بنفيهم وتشريدهم ·

● وفى وصية القديس « لويس » :

عندما يسمع الرجل العامى · ان الشريعة المسيحية قد اسيىء اليها · فانه ينبغى ألا يذود عنها الا بسـيفه فيجب عليه أن يطعن به الكافر فى احشائه طعنة نجلاء ·

ـ فهل معنى هذا ان نتهم المسيحية · بانها دين حرب؟

ـ وهل من العدل ان نحمل المسيحية وزر المنتسبين اليها ؟

لا .. كذلك من الجور . أن نلقى على الاسلام وزر ما اقترفه بعض اتباعه . فنزعم أن فتوحهم كانت دينية . وان الاسلام دين حرب ودماء . وانه انتشر بحد السيف .

فقبل الاسلام كان الجهل قد سيطر على طبائع أهل هذا العهد حتى اشتهروا بالسفاهة والكبرياء وسرعة الغضب الذى يخرج صاحبه عن آدمية الانسان الى تهوس الحيوان والثورة لاتفه الأسباب والمفاخرة فى الانساب والجاه . حتى ان النظم التى خلفتها المسيحية . كانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح .. وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب .

وليس أصدق من « جون لابوم » . وهو يصف حالة العالم قبل الاسلام . بقوله : كان جو العالم الأرضى متلبدا بسبب الاضطرابات الوحشية فى كل جهة . .وكان اعتماد الناس على وسائل الشر اكثر من اعتمادهم على وسائل الخير . وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة . اشـــدهم صيحة فى ميدان الحروب والمعارك .. والعمل الغالب لهم سلب الأمم والشعوب ..

● ولقد شهد البطريق « عيشو بابه » . الذى تولى منصبه سنة ٦٤٧ ــ ٦٥٧ هـ : بان العرب الذين مكنهم الرب من الســـيطرة على العالم يعاملوننا كما يعرفون . انهم

ليسوا أعداء للنصرانية بل يمتدحون ملتنا ويوقرون قديسنا وقسيسنا ويمدون المعونة الى كنائسنا ودينا(١) ٠

● وذكر القس « ميشون » فى كتابه ـ سياحة دينية فى الشرق :

انه من المحزن ان يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح ٠ وحسن المعاملة وهما اقدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والأمم(٢) ٠

● وقال « ميشو » فى تاريخ الحروب الصليبية :

لما استولى « عمر » على مدينة اورشليم ٠ لم يفعل بالمسيحيين ضررا مطلقا ٠ ولكن لما استولى عليها المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا وحرقوا اليهود احراقا ٠

● وقال الحبر « ميشون » ٠ أيضا(٣) :

مما يؤسف له أن المسلمين هم الذين كانوا يدعون المسيحيين بالمسالمة ٠ وحسن المعاملة ٠ مع ان المسالمة هى منبع الخير بين الأمم بعضها وبعض ٠

---

(١) أهل الذمة فى الاسلام ـ ترليون ص ١٤٩ ٠

(٢) محمد رسول الله ـ ص ١٩ ٠

(٣) الاسلام للكونت هنرى دى كاسترى ـ ص ٤٨ ٠

ولقد ايقنت من تتبعى للتاريخ ٠ ان معاملة المسلمين للمسيحيين ٠ تدل على ترفع فى المعاشرة عن الغلظة ٠٠ وتدل على حسن مسـايرة ٠٠ ولطف مجاملة ٠٠ وهو احساس لم يشاهد فى غير المسلمين اذ ذاك خصوصا ان الشـفقة والرحمة والحنـان كانت امارات ضـعف عند الأوروبيين وهذه حقيقة لا أرى وجها للطعن فيها(١) ٠

وانى أقدم فى بحثى هذا المتواضع صورة مما يكتبه الباحثون الغربيون الذين درسوا الاسلام على حقيقته ٠ مجردين عن الهوى والتعصب ٠ فهى تمثل هذا النور ٠ وتمثل الخير فى رسالته الاخلاقية السامية ودعوته الانسانية العالمية ٠ فلم تسمع الانسانية من قبل صوتا أعلى من صوت رسول الله (ص) ٠ ولا بيانا أروع من بيانه ٠ وهو يدعو الناس جميعا الى نماذج من السلوك الخلقى ٠٠ وبدائع من الأدب النفسى ٠ وروائع من التعاون الاجتماعى تكفل للانسانية السلام والسعادة ٠ وتصنع المجتمع الفاضل السليم المتكامل المتحاب المتساند ٠ الى العقل ٠ وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ومؤسس دين لا فرية فيه ولا صور ولارقيات ٠ ومنشىء عشرين دولة فى الأرض ٠٠ وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد ٠ فأى

---

(١) الكونت هنرى دى كاسترى فى كتابه خواطر وسوانح ـ ص ٢٤ ٠

رجل أدرك من العظمة الانســـانية مثل ما أدرك • وأى انسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ••

وهكذا نجد بعض الفلاسفة والعباقرة • والمستشرقين وعلماء الغرب يؤيدون الدعوة المحمدية • ويقدرون « محمد ابن عبد الله » (ص) • ودعوته بطريق مباشر أو غير مباشر • ولعمرى ان هذا النصر عظيم للاسلام يحق له ان يتيه بذكره على مر السنين والأيام ••

ولعلى بذلك أكون قد ساهمت مساهمة متواضعة فى كشف الحقائق أمام القارىء المؤمن • وخير شاهد على ذلك : « وشهد شاهد من أهله » •

والله يهدى من يشاء • وهو على كل شىء قدير ؟

المؤلف

مهندس : زكريا هاشم زكريا

الاســلام دين عــالمى

وهذا أيضا ما اعترف به بعض العلماء من المستشرقين والفلاسفة والعباقرة من ان الاسلام اصلح النظم الدينية .. وانه الرسالة الخالدة للبشر . امثال :

● « جورج سارتون » . الاستاذ بجامعة هارفارد الذى اعترف اعترافا صريحا : بان الاسلام من اصلح النظم الدينية . وأجملها على حد تعبيره . وهو عندنا أصح تلك النظم وأجملها على الاطلاق . ولكن المسلمين اليوم كثيرو البعد عن حقيقة ما جاء به الاسلام .. وأورد عبارة المرحوم الامام « محمد عبده » : الاسلام محجوب بالمسلمين .

وقال : اننا اذا نظرنا الى الاسلام من خلال أعمال المسلمين لم نر تلك المبادىء جلية واضــحة . واكد أن المسلمين يمكن أن يعودوا الى عظمتهم الماضـية . والى زعامة العالم السياسية والتعليمية . كما كانوا من قبل .

ولكن هذا لن يكون الا اذا عادوا أولا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام أو العلوم التى حث على الأخذ بها ·

● وتنبأ « سارتون » : بان المسلمين سيعودون الى قيادة العالم مرة أخرى بقوله : ان شعوب الشرق الاسلامى · وقد قادت العالم فى مرحلتين طويلتين من مراحل التقدم الانسانى طوال ألفى سنة على الأقل قبل أيام اليونان ثم فى العصور الوسطى · مدة أربعة قرون تقريبا · فليس هناك ما يمنع تلك الشعوب من أن تقود العالم ثانية فى المستقبل القريب والبعيد ·

● ويقول الفيلسوف الروسى « تولستوى »(١) :

وخلاصة الديانة التى نادى بها « محمد » هى : ان الله واحد لا اله الا هو ·

ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة · وان الله رحيم عادل · وان مصير الانسان النهائى ، يتوقف على الانسان نفسه فى الحياة الدنيا · ويؤجر أجرا حسنا فى الحياة الأخرى وان كل شىء فى هذه الدنيا زائل · ولايبقى الا الله ذو الجلال وانه بدون الايمان بالله واتمام وصاياه لا يمكن أن تكون حياة حقيقية · وان الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضا ومحبة الله تكون فى الصلاة · ومحبة

---

(١) ولد فى سنة ١٨٢٨ م · وتوفى عام ١٩١٠ ·

الناس فى مشاركتهم فى السـراء والضراء ومسـاعدتهم والصـفح عن زلاتهم · وان الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لابقاء كل ما من شأنه اثارة الشهوات النفسية · والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية وانه يتحتم عليهم الا يخدموا الجسد ويعبدوه · بل يجب عليهم أن يخدموا الروح · و « محمد » لم يقل عن نفسه انه نبى الله الوحيد · بل اعتقد أيضا بنبوة «موسى» « وعيسى » وقال : ان اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم · وفى سنى دعوة « محمد » احتمل كثيرا من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة شأن كل نبى قبله ·· نادى أمته الى الحق ·· ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه · بل ثابر على دعوته فى قوة وثقة وايمان لا مثيل له فى التاريخ ·

ومما لاريب فيه : ان النبى « محمد » من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ويكفيه فخرا انه هدى مئات الملايين الى نور الحق · والى السكينة والسلام · وفتح للانسانية طريقا للحياة الروحية العالية وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص أوتى قوة والهاما وعونا من السماء ·

● وقال « ليودورش » : ان الاسـلام دين انسـانى طبعى اقتصادى ادبى ولم أذكر شيئا من القوانين الوضعية ألا وجدته مشرعا فيه ·· ولقد وجدت فيه حل المسألتين اللتين تشغلان العالم طرا :

ـ الاولى فى قول القرآن : « انما المؤمنون اخـــوة فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية ·

ـ والثانية : فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا اذا امتنع الأغنياء عن دفعهـــا طوعا · وهذا هو دواء الفوضية ·

● وقال العلامة « ماسينيون »[1] : يمتاز الاسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من افراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة · والاســـلام ينادى بالعداء للاموال المصرفية (الربا) · والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضرورات الحياة فى حين انه شديد التمسك بحقوق الزوج · والولد · والملكية · ورؤوس الأموال التجارية فهو بذلك يقف وسطا بين البورجوازية الرأسمالية · والشيوعية والبولشفية · وللاســـلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها · وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام من ماض كلله النجاح ·· فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات · ولقد برهنت الطوائف الاســـلامية الكبرى فى افريقيا والهند الشرقية والجماعات الصـــغيرة منهم فى الصين واليابان · على أن الاسلام يســـتطيع أن

---

(1) له كتـاب محاولة حول أصـول المفردات الاصطلاحيـة للتصوف فى الاسلام .

يوفق بين العناصر التى لا سبيل الى التوفيق بينها[1] ·

ان الله سبحانه بعث رسوله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا · ويؤيد ذلك :

● المؤرخ الانجليزى الكبير « ارنولد توينبى » بقوله :

لم تكن رسالة الاسلام مقصورة على بلاد العرب · بل أن للعالم أجمع نصيبيا فيه ·· ولما لم يكن هناك غير اله واحد · كذلك لا يكون هناك غير دين يدعى اليه الناس كافة ·

● وقول « سير توماس » و « ارنولد » فى كتابه ـ الدعوة الى الاسلام :

من أن القول بان الاسلام قد تقدم بالسلاح أمر ليس فيه الا القليل جدا من الحقيقة ، بل أن الأمر على عكس ذلك تماما · لأن الاسلام قد لاقى الانتشار السريع بعد أن انتزع الأوروبيون السلاح من أيدى المسلمين · وبعد أن كان قد لاقى الاخفاق فى فترة حمل السلاح ·

● ويقول « توماس كارليل »[1] :

---

(١) الحضارة الاسلامية ـ لكرد على ·

(٢) ولد فى سنة ١٧٩٥ م · وتوفى ١٨٨١ م ·

لقد مضى على هذا الدين مئتان والف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لأكثر من سدس سكان العالم ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات افئدتهم ولا أحسب أن أمة اعتصمت بدينها اعتصام المسلمين باسلامهم .. اذ يوقنون به كل اليقين .

● وأما الدكتور « كونصتيان سنوك هيرجرونحية(٢) يقول : بأن الاسلام لا يقاوم للنصرانية لأن الاسلام فى المستقبل سيشكل نفسه حسب حاجات العصر الحديث .. ولن يدع النصرانية تغلبه وتسلبه ابناءه الذين كسبهم من مئات الاجيال . وقد طبعوا بطابعه وصاروا جزءا منه . وهم يمثلونه فى سائر بقاع الأرض .

كما يؤكد : ان المسلمين سيستمرون فى دينهم مهما اتخذوا من الثقافة والمدنية الأوروبية .

ويقول : انه فى الجامعات الكبرى نجد الكثيرين من المسلمين ولكن مجرى عقولهم لايزال اسلاميا .

وقال أيضا : انه كان يعرف الطالب المسلم من غير المسلم فى جامعته بمجرد الاطلاع على مبحثه الذى كتبه : اذ أن فى المسلمين ميلا قويا الى التمسك بدين آبائهم وتطبيقه على الحاجات المدنية .

---

(١) جريدة البلاغ ٢٩/١١/٢٧ .

● والمستشرق « لوسين يوفا » أشار الى : أن الاسلام يتفق مع مدنية زماننا الحاضر تمام الاتفاق . وان التقدم الذى يشاهده فى الممالك الاسلامية منذ قرن دليل على أن الاسلام يسير مع المدنية جنبا الى جنب وان الاسلام سيظل موجودا دائما .. وقال عن انحطاط العالم الاسلامى :

ليس الذنب فى أكثرها على المسلمين . وانما هو نتيجة الحكم المطلق . وجهل الحكومات الذى أدى الى انتشار الجهل واضطرار دول الاسلام الى خوض حروب كثيرة . والعجز عن توزيع العدل وسوء خطة الغربيين فى معاملة الشرقيين .

● ومن أحدث الكتب التي انصفت الاســـلام كتاب أصدره الاستاذ « جاك رسلر » الأستاذ بالمعهد الاسلامى فى باريس بعنوان « الحضارة العربية » مهد له بقوله : انه يرجو مخلصا لمن يتصفح هذا الكتاب ـ من الغربيين طبعا ـ ان يحسن فهم الروح الاسلامية . وكيف تشكلت على مر الزمن .

● وتحـــدث الكاتب الروائى والمؤرخ الكبير كاتب ايرلندا الانجليزى الشهير « برناردشو »(١) عن الاسلام فقال : فقد نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ..

---

(١) ولد فى سنة ١٨٥٦ م . وتوفى سنة ١٩٥٠ فى ٢ نوفمبر فى لندن .

ورسم وسائل تحقيقها وأقام موازين الحق والعدل والانصاف . ودعا الى التعاون على البر والخير والاصلاح . كل ذلك فى ظل المحبة والوئام والسلام .

● وقد قال « ماسينيون » : يمتاز الاسلام بانه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من افراد الشعب أو العشيرة فى موارد الجماعة . وللاسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها وليس من مجتمع آخر له مثل ما للاسلام ماض كله التوفيق فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق .

● وقال « جان مليا » : فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام باعبائها لبعدها عن مدى الافهام . على حين كان الاسلام عجيبا فى سهولته صريحا فى فروضه . وكان هذا سببا فى سرعة انتشاره بين الشعوب التى اضطربت نتيجة ما أصابها من الشك المضنى فى عقائدها الدينية .. وهذا أيضا كان ومايزال السبب فى انتشاره المتواصل بين الأمم فى آسيا وافريقيا لنفوذه الى أرواحهم . دون الحاجة الى التطويل فى شرحه . والتلطف فى الدعاية له .

● ويقول الفيلسوف « جوستاف لوبون » الفرنسى[١]:

---

(١) ولد سنة ١٨٤١ م . وتوفى ١٩٣١ م . له مؤلفات منها كتاب حضارة العرب وترجم الى العربية .

القرآن قانون دينى وسياسى واجتماعي · وأحكامه نافذة منذ قرون كثيرة · والمسلمون أخوة لأنهم يعبدون الها واحدا وشريعتهم واحدة · يبغضون ما يبغضون ·· ويحبون ما يحبون ويجمع الحج كل سنة فى مكة جماعات المؤمنين من كل صقع ولغة ·· وقال : وحرص الاسلام على تقرير المساواة فى أكمل صورها · وجعلها من العقائد الأساسية التى يجب أن يدين بها كل مسلم · فقرر ان الناس سواسية بحسب · خلقهم الأول وعناصرهم الأولى · وان ليس ثمة تفاضل فى انسانيتهم · وانما يجرى التفاضل بينهم على أسس خارجة عن الانسانية نفسها · على أسس كفاياتهم وأعمالهم · وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ومجتمعه والانسانية جمعاء ·

● وتحدث « ر · ف · بورلى » فى كتابه عن الرسول وعن المساواة فى الاسلام · فقال : وليس هناك أى عائق لونى للمسلم فلا يهم أكان المؤمن أبيض أم أسود أم أصفر ·· فالجميع يعاملون على قدم المساواة ·

● كما تحدث المستشرق النمسوى المسلم « فايس » عن الاخاء فى الاسلام · فقال : لقد ابطل الاسلام العصبية العرقية وشق الطريق الى الاخاء الانسانى والى المساواة ولكن المدنية الغربية ماتزال عاجزة عن أن تنظر الى ماوراء ذلك الأفق الضيق من العداء الجنسى والقومى ان الاسلام لم يعرف الطبقات الاجتماعية · ولا حروب تلك الطبقات فى

مجتمعه . ولكن التاريخ الأوروبى كله منذ أيام اليونان والرومان مملوء بالـكفاح فيما بين الطبقـات وبالعداء الاجتماعى .

● واشار المستشرق « هـ . أ . جب » الى : ان المسلمين مازالوا متمسكين بدينهم متشبثين بعقيدتهم مؤمنين اثبت الايمان بان الاسـلام خير الأديان . وان الاسلام مازال حتى يومنا (١٩٥٠) عقيدة دينية راسخة .. وقاعدة اجتماعية ثابتة ونظاما خلقيا وطيدا . وقوله : ان الوحدة الاسلامية حقيقة قائمة تزداد على الأيام قوة وجلاء ودلل على ذلك بانه مايكاد يغشى ربعا من ربوع الاسلام . أية حادثة خطيرة حتى تذيعها الصحف فى ارجاء آسيا وأفريقيا بأسلوب مثير عنيف . فلا تلبث أن تتجاوب وتتلاقى . فمقتل الشهيد « عمر المختار » . مثلا . كان له دوى . وان ارجاء العالم الاسلامى من مراكش الى جاوه . قد اضطربت له .. كأنها قد مسها تيار كهربائى كان يصعقها .. ثم أشار « جب » الى دور الاسلام اليوم بالنسبة لمادية الحضـارة وانهيارها المعنوى بقوله : انه مازال للاسـلام رسالة يؤديها الى الانسانية جمعاء فهو يقف فى وسط الشرق والغرب وقد أثبت اكثر مما اثبت أى نظام سواء مقدرته على التوفيق والتأليف بين الأجناس المختلفة . واذا لم يكن بد من وسيط يسوى ما بين الشرق والغرب من نزاع وخصام فهذا الوسيط هو الاسلام .

● وقد اكد ذلك قول اللورد « هيدلى » : الذى يرى انه لو ندبت لجنـــة من الانجليز الاكفاء لفحص الدين الصالح لأن يتدين به العالم كله · لاجمعوا على اختيار الاسلام ·

● ويقول « جيمس متشنر » فى مقاله ـ اخترت الدفاع عن الاسلام: لم يحدث فى التاريخ ان انتشر دين بهذه السرعة فعند وفاة « محمد » سنة ٦٣٢ ميلادية · كان الاسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية · ولم يلبث بعد ذلك ان ضم اليها · سوريا · وبلاد الفرس ومصر · والتخوم الجنوبية لروسيا وامتد الى شمال أفريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا · وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا · واعتقد الغرب ان توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون الى السيف · ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ·· فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان مادام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية ·

ومن هؤلاء المســـتشرقين الذين قتلوا الأديان بحثا وتمحيصا ودراسة وتحليلا ثم خرجوا من ذلك بنتيجة طيبة تعزز كلمة المسلمين وتنصر دين الاسلام على العالمين ·

● وقد كتب « بيك » الكاتب فى كتابه ـ قبائل نيجيريا الشمالية يقول : ان الاسلام لم يترك أثرا عميقا فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب وحسبب بل أنه جاء بحضارة جديدة

اتاحت للشــعوب الزنجية طابعا اختياريا متميزا مايزال واضحا حتى اليوم مؤثرا فى نظمهم السياسية والاجتماعية ذلك ان الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شــعوبا . وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة . فقد وسع آفاقهم . ورفع مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى . وخلع على اتبــاعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحــترام الآخرين . لقد حث الاسلام على تعلم القراءة والكتابة . وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر . وغير ذلك من العادات الوحشــية . وأتاح للزنجى الســودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا فى عالم حر.

● وهذا هو قول المبشر « شاتليه » :

أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يرتقى الآن وينتشر فى الهند والصــين . أما الأديان الأخرى فانها آخذة فى الانحلال .

● وكذب «مرجليوث» ما رواه زملاؤه من ان انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام . بقوله : انى أرى المسلمين تحت سلطة المسيحيين أرقى من المسيحيين عقلا وأدبا .

● واستشهد بقول « وربل » الذى ذكر بعد سياحة له فى الحبشة عام ١٨٣٨ م : أن الاحباش المسلمين أقدر على

العمل واسمى مدارك واكثر تهذيبا وعلما من الاحباش المسيحيين ٠

● وأشار « مرجليوث » أيضا ٠ الى أن ما ذكره الرحالة « ستيفن هيدن » بعد زيارته لآسيا من أن أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية قد ينجحون فى البلاد التى لم يكن للمسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام ٠

● وقال الكونت « هنرى دى كاسترى » الفرنسى أحد حكام الجزائر السابقين فى كتابه ـ تأثرات ومباحث :

ان المسلمين امتازوا بالمسالمة وحرية الأفكار فى المعاملات ومحاسنة المخالفين ٠ وهذا يحملنا على تصديق ما قاله « روبنسون » : ان شيعة « محمد » هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم ٠ وهذه المحبة التى دفعت العرب فى طريق الفتح ٠ فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة ٠ ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم الا ماكان لابد منه فى كل حرب وقتال ٠ ولم يقتلوا أمة أبت الاسلام ٠

● وقال « جوستاف لوبون » فى كتابه حضارة العرب :

ان القوة لم تكن عاملا فى نشر القرآن ٠ وان العرب تركوا المغلوبين احرارا فى أديانهم ٠ فاذا كان بعض

النصارى قد اسلموا · واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم يكن للناس بمثله عهد · ولما كان عليه السلام من السهولة التى تعرفها الأديان الأخرى · وقد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية · وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم · تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم · غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم ·· وحفظ الأمن بينهم والحق · ان الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب ·

●

● ويرى باتين Batten فى سلسلة كتبه عن أواسط أفريقية : ان انشار الاسلام بين الافريقيين · اذا روجعت أسبابه جميعا انما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة انسانية ممتازة لم تكن فى العالم حضارة تضارعها أو تقوى على فعاليتها · وان وصول الاسلام الى القارة الافريقية · كان ملازما لوصوله الى القارة الأوروبية نفسها وامتداده الى الاقطار البعيدة من القارة الآسيوية وقد كان امتياز حضارته سببا كافيا لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذى يصل اليه العربى المطبوع على الترحل والسياحة ويعينه على مطاوعة هذه النزعة انه اقتبس كل ما يقتبس من اليونان والأمم القديمة من علم الجغرافيا والفلك وزاد عليها حب الكشف الذى سرى الى جميع المسلمين مع سريان الشوق الى زيارة مكة ومعاهد الاسلام الأولى · وبينما كان الأوروبيون يعولون على

السحر كان أطباء العرب يجرون عمليات الجراحة الصعبة ويحســـنون الانتفاع بكثير من العقاقير ·· ومازال طرق العـــلاج عندهم مما يســتفيد منه الأطباء فى علاج بعض الأمراض الى هذه الأيام ·

ومثل هذه الحضارة لا سبيل الى حصرها فى بقعة محــدودة من العالم مع اقدام العربى على احتمال الجهد والخطر ورغبته فى الرحلة والارتياد فانتشار الاسلام انما هو فى حقيقته انتشار حضارة جديرة بالانتشار وهو حركة من حركات التوســع الأممى تبعثها دواعى النشاط التى تمهدها المعرفة وتسخرها العقيدة التى تسود الدنيا لأنها لا تبالى ان تقتحمها لا تكترث لفراقها ·

● ويقول الاستاذ « مونتجومرى » :

ان فكرة الأمة كما جاء بها الاسلام هى الفكرة البديعة التى لم يسبق اليها · ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى الوحدة فى أمة واحدة تختفى فيها حواجز الاجناس واللغات وعصــبيات النسب والسلالة · وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين اتباعه فاســتلمت أمة على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الاقطار وتفاوت المصالح · ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها ·

بل كان المنشقون عنها · يعتقدون انهم أقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفى الغرباء عنها ·

● ويقول « دوزى » الفرنسى فى كتابه تاريخ عـرب اسبانيا :

"وقد تمكن الاسلام من التوغل فى أفريقيا لأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود · فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط · ولم يتحرج المسلمون من الزواج من الزنجيات وانجبوا منهن عددا كبيرا من الأطفال المسلمين الذين لم يكادوا يبلغون سن الشباب حتى ازدادت حميتهم واشتد دفاعهم عن الاسلام ·

● والمؤرخ الفرنسى المستشرق « ارنست » يحدثنا فى كتابه التاريخ العام : ان الفرنجة لم يلبثوا ان يعرفوا ما هو الاسلام · وان يعترفوا بان هناك شـــعوبا أكثر منهم حضــــارة · وانه بالتالى لم يكن غريبا ان يأخذوا عن الشرقيين كثيرا من الابتكارات والعادات ·

● وكذلك يجزم العالم الفرنسى الجهبذ « فورييل » بهذه الحقيقة جزما لا يدع فيها مجالا للريبة فى كتابه ـ تاريخ الشعوب البرفانسى · اذ يقول : هناك ما يدفع المرء الى استنباط ان عرب الأندلس كان لهم بوساطة مثلهم اثر حقيقى فى الحضارة الخلقية والاجتماعية فى جنوب فرنسا وأخص من ذلك فى القسم الأكثر سيادة فى هذه الحضارة وهو الفتوة ·

وان تفوق المسلمين على الغربيين فى الفتوة وما تنبثق منها من الفضائل والمحاسن لم يكن يخفى على أحد من المؤرخين الغربيين بل كان أمرا مسلما به من الجميع ·

● ولايضاح ذلك يقول الكاتب الانجليزى « انستانليه لان بول » فى كتابه ـ صلاح الدين وتاريخ مملكة أورشليم :

ان الذين درسوا تاريخ الحروب الصليبية ليسوا فى حاجة ان يتعلموا فضـــائل الحضارة · وكان لشـــهامة وكبر النفس · وكرم الخلق · والتسامح والفتوة الحقيقية ·· والثقافة الرشـيدة · كانت كلها ابان تلك المكافحات فى جانب المسلمين · وهؤلاء المؤرخون عندما يتحدثون عن الفتوة يعزون الى المســلمين الفضل فى معرفتها وتنقيح نظامها فى أوروبا وصقلية · وترقيتها · وتوسيع آفاقها ·· ويسجل هذا العالم الفرنسى « بارتيلمى ساينهلبر » فى كتابه ـ محمد والقرآن ـ فيقول : بســـبب مخالطة العـــرب ومحاكاتهم استطاع اشرافنا فى العصور الوسـيطة · ان يجعلوا طباعهم الفظة لينة ·

وعرف فرساننا دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم عواطف أكثر نبلا ورقة انسانية · ومن المشكوك فيه أن تكون المسيحية رغم ما تقدمه من خير هى وحدها التى الهمتهم هذه الأحاسيس ·

ومن الأمثلة العليا التى كان الفريقان يتبادلانها تلك

الحادثة الرائعة التي ليس فى مكنة الزمن مهما طال أن يمحو ذكرياتها من صحائف الاذهان ومجملها ٠

ان « ريتشارد » (قلب الاسد) ملك انجلترا ورئيس قواد الحملة الصليبية قد مرض اثناء اشعال لهيب المعمعة فعندما علم « صلاح الدين » بهذا اصطحب معه طبيبه الخاص وذهبا لمعالجته ٠ فلما مثلا بين يديه أوجس أحد رجال الحاشية خيفة منهما على مليكه ٠ وقد رأى «صلاح الدين » فى عينيه ذلك الحذر ٠ فابتسم ٠ وقال له : ان المسلمين لا يطعنون من الخلف ولا يستخدمون الغدر ٠٠ حتى ولو كان لهم فى ذلك فائدة كبرى فكيف وموت ملككم مسموما ٠ لا يجلب « لصلاح الدين » أى مجد ٠

ولم يكد « قلب الأسد » يفه بهذه العبارة ٠ حتى هتف بالطبيب قائلا : تقدم فافحصنى وأعطنى دواءك فورا ٠ وقد فعل الطبيب ذلك ٠ ففحص الملك وقدم اليه الدواء فتناوله مطمئنا مغتبطا فبرىء ٠٠

تلك آية من آيات الشهامة ٠ وكبر النفس والعظمة الحقيقية ٠ كما انه برهان على أن تلك الحادثة درس لاينسى لقنه قائد المسلمين ٠ لقائد الفرنجة ٠ فتأثر به ٠

ولما كان الناس على دين ملوكهم ٠٠ كما يقول المثل السائر فقد دوت هذه الحادثة التى تدل على عظمة الاسلام

وتسامحه بين الغربيين دويا مايزال صداها على مر العصور ·

وهكذا أجمع المؤرخون من العرب · والأجانب ·· على الاشادة « بصلاح الدين » · وأفاضوا فى وصف جوانب عظمته · كزعيم سياسى · وقائد حربى · وانسان ·· فقد جمع بين براعة السياسة والشجاعة فى القتال وسمو النفس والأخلاق ··

ولو استعرضنا بعض صور أخرى من تاريخ الاسلام فى العصور الوسطى فيرى أن اسبانيا قد كتبت فى هذه المدة صفحة من أمجد الصفحات فى تاريخ أوربا · ومنها تلقى العلم طلابه من جميع أصقاعها · بعد أن كانت البلاد ترزح تحت نير الاضطهاد · وتعيش فى جو خانق من الفساد الخلقى وتحكم السادة فى العبيد · حتى أن مؤرخى المسيحية قالوا : لقد ظهر أن الحكم الاسلامى كأنه عقاب نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوى · واتجهوا نحو الرذيلة ·

وتحول كثير من الأهالى الى الاسلام · ونعموا بمبادئه الخالدة وكان هناك انسجام ومصاهرة واقبال على تعلم اللغة العربية · ونبغ كثير من الأهالى فى ظل الاسلام · ونعموا بمبادئه الخالدة وكان هناك انسجام ومصاهرة واقبال على تعلم اللغة العربية · ونبغ كثير منهم فى آدابها حتى المسيحيون واليهود منهم · وتسمى كثير من هؤلاء

باسماء عربية . وقلدوهم فى بعض النظم الدينية كالحنان .. كما أثرت العقيدة على أفكار الرهبان . فغير كثير منهم رأيه فى « عيسى » الذى كانوا يسمونه « ابن الله » . ومنهم « اليباندوس » أسقف طليطلة و « فيلكس » أسقف أورجيل . وكان من اثر ذلك عقد مجمع طليطلة سنة ٩٣٦ م للنظر فى هذه الأفكار .

● يقول المؤرخ البريطانى الكبير « ارنولد توينبى »(١) :

وقد بلغ من تاثير الاسلام فى معظم الذين تحولوا اليه من مسيحى أسبانيا مبلغا عظيما . حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته وفنه الذى استولى على عقولهم . وبهر خيالهم . كما وجدوا فى الفروسية العربية من قصد نبيل . وخلق كريم . تلك الحياة التى ظلت مغلقة فى وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية واخلاصهم لها . اضف الى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لابد أن تكون قد بدت فقيرة ضئيلة اذا ماقيست بعلوم المسلمين وآدابهم التى لا يبعد أن تكون دراستها فى حد ذاتها باعثا على الدخول فى دينهم .

ولقد ذهب فريق من المؤرخين الى أن الفتوة العربية

---

(١) ولد عام ١٨٦٤ م . وتوفى ١٩٣٠ م له مؤلفات من اهمها كتاب الخلافة ١٨٩١ م .

سابقة فى نشأتها على الفروسية الغربية · بل يجزم بان الغرب قبل اتصاله بالمسلمين فى أسبانيا لم يكونوا يعرفون شيئا من الفتوة البتة ·

● ومن هذا الفريق الكاتب الباحث « هامبربور خستول » الذى أعلن فى دراسة له ظهرت فى الصحيفة الآسيوية فى سنة ١٨٥٥ م · وعنوانها ـ « فتوة العرب السابقة على فتوة أوروبا وتأثير الأولى فى الثانية » وقد اسس هذا الكاتب رأيه على الحديث النبوى الذى هو عنده حجة قاطعة على قدم الفتوة عند العرب والذى يقال ان النبى قد نطق به على اثر الانتهاء من غزوة أحد · وهو لا سيف الا ذو الفقار · ولا فتى الا « على » (والحديث ضعيف وسنده غير يقنى) ·

● ويحدثنا المؤرخ الاسبانى « انتوثيوكوند » فى كتابه ـ تاريخ سيادة العرب فى أسبانيا ـ فيقول : ان حرس الحدود من المسلمين كانوا يحيون حياة جوية قاسية ·· وكانوا يخصصون أنفسهم عن طيب خاطر للتمرن الدائب على التدريبات العسكرية وكانوا يلزمون أنفسهم بالقسم على الدفاع عن حدودهم ضد مهاجمات المحاربين المسيحيين ·· وكانوا جميعا من علية القوم وصفوة الفرسان · فلم يكونوا يسمحون لأنفسهم بالفرار · بل كانوا يوجبون على أنفسهم أن يقاتلوا بشجاعة · ويفضلون أن يموتوا على أن يتخلوا عن مواقعهم من الأرجح أنه على نموذج هؤلاء

المحاربين قد تكونت فى أسبانيا وبين مسيحى الشرق تلك الأنظمة العسكرية التى اشتهرت بالشهامة والخدمات التى قدمتها الى المسيحية ٠ اذ انه توجد مشابهة قوية بين النوعين من الأنظمة ومن الآراء الصـــحيحة للمستشرقين التى هى الى جانب الاسلام ونبيه والحق ٠

وقد أيد كثير من الباحثين الأوربيين المنصـــفين قوة الشريعة الاسلامية وقدرتها على مواجهة مطالب العصـــر ومنهم :

● الاستاذ « ادوار لمبير » ٠ ناظر مدرسة الحقوق الخديوية فى القاهرة سنة ١٩٠٦ م ٠ الذى أعلن :

ان فى الشريعة الاسلامية كنزا لا يفنى ومنبعا لا ينضب وأنه خير ما يلجأ اليه المصريون فى العصر الحاضر فى البحوث العلمية حتى يعيدوا لمصر وبلاد العرب هذا المجد العلمى ٠

وقال : انه كان يظن ان القانون الرومانى اثر تأثيرا كبيرا فى الشريعة الاسلامية ٠ ولكن تبين له بعد ذلك ٠ ان هذه الشريعة مستقلة بذاتها ٠ وانه ليس للقانون الرومانى اى اثر فى الشريعة الاسلامية وانها شريعة مستقلة ٠

● كما أعلن « ليفى اولمان » : أستاذ الحقوق بباريس اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصـــدرا للقانون المصرى ٠

● وقال الدكتور « ايزيكو انساياتو » : أيضا : ان الشريعة الاسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الأوروبية بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتا ٠

● وقال « استيلانا » فى بعض مؤلفاته :

ان فى الفقه الاسلامى مايكفى المسلمين فى تشريعهم المدنى ان لم نقل ان فيه ما يكفى الانسانية كلها ٠

● وقال « هولكم » استاذ الفلسفة بجامعة هارفارد

الشريعة الاسلامية تحتوى على جميع المبادىء اللازمة للنهوض ٠

● وقول الدكتور « شيرل » عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا فى مؤتمر الحقوقيين : ان البشرية لتفخر بانتساب رجل « كمحمد » اليها ٠ اذ انه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا أن يأتى بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون لو وصلنا الى قمته بعد الفى سنة ٠

● وقال المسيحى اللبنانى « سليم باز » شارع مجلة أحكام العدلية : أعتقد بكل اطمئنان بأن فى الفقه الاسلامى كل حاجة البشر من عقود ومعاملات واقضية والتزامات وان فى مختلف خزائن البلاد الاسلامية ودور الكتب الأوربية فى هولندا وروما وبرلين وباريس والمتحف البريطانى والمكتبة البابوية فى قصر الفاتيكان الوف الكتب الفقهية

الاسلامية التى هى جهود فحول العلماء • وهى الشاهد الأكبر على أنه لا يوجد معنى من معانى الاحكام المنشود فيها العدل • ولا حاجة من حاجات البشر فى التشريع الا تقدم لفقيه مسلم قول فيه •

● وفى التسامح • قال القس « ميشون » فى كتابه ـ سياحة دينية فى الشرق : انه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والأمم •

● ويقول « جيبون » أعظم علماء التاريخ فى العصر الحديث :

وجاءت الشريعة الاسلامية عامة فى أحكامها يخضع لها أعظم ملك وأقل صعلوك • فهى شريعة حيكت باحكام منوال شرعى وليس لها مثيل فى العالم[1] •

● ولقد حاول المؤرخ الالمانى « كريمر » فى كتابه حضارة الشرق فى عهد الخلفاء • كلا • فان هذه الفضيلة لم تكن خاصة بالخلفاء والرؤساء وحدهم بل كانت سارية فى الشعب عامة •• ثم انها لم تقتصر على عصر المسلمين القدامى وحسب • بل شملت سائر العصور ••

● وكتب المستشرق الانجليزى « ر • هـ • فولت » فى

---

(١) الحضارة الاسلامية .

كتابه « حقيقة الاسلام » : ومن حيث ان أى دين من الأديان لابد أن يكون ذا تأثير قوى فى حياة معتنقيه وتصرفاتهم فان للاسلام تأثيرا كبيرا مماثلا لأى تأثير لدين آخر بل يزيد عليه ·· وذلك بما تنطوى عليه طبيعته ··

● وكما يقول المؤرخ الالمانى « متز » فى كتابه ـ نهضة الاسلام : كان المسلم يشعر انه حيثما حل فهو فى قلب وطنه ·

● ودعا « جستنيان »(١) : الى تجميع أحكام الشريعة الاسلامية بالمعاملات فى باندكت اسلامى · وقال : انه خير معوان للاسترشاد به فى اعداد موسوعة اسلامية عن المعاملات ·

● وقد أشار « ويلفرد كانتول شمت » : بصدد الاشارة الى محاولته بناء مجتمع اسلامى فى القرن العشرين · قال : أن تاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل على أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض والبناء · ومالم يكن المثل الأعلى اسلاميا على وجه من الوجوه لن تثمر الجهود البتة ·

● وقال الأستاذ « بريفوت » فى كتابه ـ تكوين الانسانية: فى القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الاسلام وقال : ان رئيس ديركلوتى يأسف على أنه رأى اثناء اقامته بالاندلس ان الطلبة من فرنسا والمانيا وانجلترا يردون

---

(١) الاهرام ١٩٣٦/١٠/٧ م ·

أفواجا الى المراكز العلمية العربية ·· وقوله : فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضـــارة العربية على العالم الحاضـــر ·

وهناك نوع من الكتاب لا يصرحون باسم الاسلام ·· ولكنهم يضعونه فى مواجهة كل جديد فى العالم · وفى الوقت نفسه يقولون كلمة جديدة من أجل الاســـلام · ومن أجل الحياة · ولقد كان من هؤلاء : « س · أ · ق · حسينى » صـــاحب كتاب الادارة العـــربية وهو أحد خريجى جامعة عليكرة :

ان الاســـلام فى حقيقته يتمشى مع أحدث الاحتياجات والأفكار العصرية حتى أن رجلا من الانجليز هو « ازوان ويرث » كتب قائلا : اننى تبينت اننى أدين بدين الاسلام دون شعور منى بذلك » ·

كما تبين المسيو « جوردان » أنه يتحدث النثر دون علم منه بذلك ·

● يقول الأستاذ « جولد زيهر » المستشرق : ان الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة الجاهلية ·

● أما المستشرق « جرت » قال : اذا كان الاسلام هو هذا · أفلا نكون جميعا مسلمين(١) ·

---

(١) افكار حول الاسلام ـ د· عبده بدوى ـ المجلس الاسلامى·

● ويقول « جيمس متشيز » : كثيرا ما أحسست وأنا أعيش بين المسلمين ان الله عندهم حقيقة أكبر مما هو عند المسيحيين .

● ويقرر الشاعر الالمانى الأعظم « جوهان ولفانج جوته » وكبير أدباء الالمان فى فرانكفورت عام ١٧٧٢ م :

اذا كان هذا هو الاسلام فنحن جميعا ندين بالاسلام .

● وأعظم شهادة للحقد التعصبى العنصرى ما قاله الكاتب والفيلسوف الكبير « برنارد شو » :

لقد وضعت دائما دين « محمد » . موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة . فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية الهضم لاطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع ان يكون جذابا لكل جيل من الناس .

ولقد تنبأت : بان دين محمد « الاسلام » سيكون مقبولا لدى اوروبا غدا . وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم . وقد صور اكليروس القرون الوسطى فى الاسلام بأحلك الألوان اما بسبب التعصب الذميم . واما بسبب الجهل المقيت .

ولقد كانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح . بل يجب أن يدعى : منقذ الانسانية .

واننى لأعتقد بانه لو تولى رجل مثله زعامة العـــالم الحديث لنجح فى حل مشـــكلاته بطريقة تجاب الى العالم السلام والسعادة • اللذين هو فى اشد الحاجة اليهما • ولقد أدرك ذلك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون امثال « كارليل » و « جوته » • وهكذا وجد تحول حسن فى موقف اوربا من الاسلام • ولكن أوربا فى القرن الراهن (العشرين) تقدمت فى هذا السبيل كثيرا فبدأت تعشق عقيدة محمد • وفى القرن التالى ربما ذهبت الى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها •

فبهذه الروح يجب أن تفهمـــوا نبوءتى • وفى الوقت الحاضر كثيرون من ابناء قومى • ومن أصل أوروبا قد دخلوا فى دين محمد حتى ليمكن أن يقال أن تحول أوربا الى الاسلام قد بدأ •

القرآن المعجزة الخالدة

القرآن هو معجزة الاسلام . فيه شريعته . وهو حبل الله الذى يعتصم به المسلمون . وهو برهان الله ونوره المبين

« يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمـــات الى النور باذنه ويهـــديهم الى صـــراط مستقيم »(١) .

فالقرآن كلام الله المنزل على عبده « محمد » . المتعبد بتلاوته . فتلاوته عبادة . بل أفضل عبادة لقوله (ص) : أفضل عبادة أمتى تلاوة القرآن ودراسته .

● يقول الدكتور « موريس الفرنسى » :

ان القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر . وانه كتاب لا ريب فيه .

● ويقول « هنرى دى كاستري » : ان القرآن يستولى على الأفكار . ويأخذ بمجـــامع القـلوب : ولقد نزل على « محمد » دليلا على صدق رسالته .

---

(١) المـائدة ـ ١٦ .

● ويقول « الكس لوازون » : خلف « محمد » للعالم كتابا هو آية البلاغة · وسجل الاخلاق · وهو كتاب مقدس ·

وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسالة تتعارض مع الأسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ·

● أما الكاتب « واسنجتون ايرفنج » وهو من أعلام الكتاب بأمريكا · فيقول : يحوى القرآن اسمى المبادىء وأكثرها فائدة واخلاصا ·

● ويقول الاستاذ الفرنسى « جوتيه » فى كتابه أخلاق المسلمين وعوائدهم : ان تعاليم القرآن عملية ومطـــابقة للحاجات الفكرية ·

● ويقول « جيمس متشنر » فى مقال له(١) : لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم · وهو بكل تأكيد أيسرها حفظا وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به · فليس طويلا كالعهد القديم · وهو مكتوب بأسلوب رفيع · أقرب الى الشعر منه الى النثر · ومن مزاياه ان القلوب تخشع عند سماعه · وتزداد ايمانا وسموا وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول واصداء الطبيعة والأغانى المعروفة فى الجماعات القديمة·

---

(١) اخترت الدفاع عن الاسلام .

● وتحدث المفكر الكبير « جوستاف لوبون » عن القرآن : القرآن قانون دينى وسياسى واجتماعى ، واحكام نافذة منذ قرون كثيرة . والمسلمون أخوة لأنهم يعبدون الها واحداً وشريعتهم واحدة .

● كما قال « جوته » الالمانى عن القرآن : ان هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره الى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحياة الفكرية لقوم معتزين بتقاليدهم متمسكين بعاداتهم القديمة .

● وقال « توماس كارليل » : ان علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والاخلاص والدعوة التى بلغها « محمد » الى العالم حق وحقيقة .

● وقال «بارتلمى سانت هيلر» : يصف تعاليم القرآن :

ان هذه التعاليم هى التى ارتقت بعقول الملايين من الناس وماتزال ترتقى كل يوم بشعوب متأخرة ناشرا بها الحقائق الكبرى الضرورية للذات البشرية من الوجهة الدينية والاجتماعية والخلقية والبيئية ولن تمضى سنوات قليلة حتى تصبح أفريقيا كلها مدينة بالفضل للاسلام .

● وقد قال « هيرشفيلد » : وليس للقرآن مثيل فى قوة اقناعه وبلاغته وتركيبه واليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة نواحيها . ثم قال : ان الدين الاسلامى مخالف

لهذه الابراج الشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة ٠

● واليك ما قاله الأستاذ « كارادى فو »(١) : ان علم الله وقدرته وحكمته ليست مقصورة فى القرآن على زمن ايجاد الكائنات ٠ بل هى تحوطها فى مستقبلها أيضا ٠ لأن هذه الكائنات لها عند الله غاية معينة قصد اليها من ايجاد المجموعة الكونية ٠ وقد ابان هذه الغاية بكل بساطة فى قوله سبحانه : « **وماخلقت الجن والأنس الا ليعبدون** » ٠

● ويقول « امرى ريفر » فى كتابه ـ قضية السلام :

فالوحدة التى احتفظ بها القرآن قرونا بين الشعوب الاسلامية المختلفةالأصول قد ذهبت وصار الشعبالاسلامى قوميات شتى ، فدعاة الجامعة التركية يرمون الى توحيد فروع معينة من الجنس التركى ودعاة الجامعة العربية يشيرون باتحاد الشعوب العربية ٠

● والاستاذ « ديرمنا نجيم » فى كتابه ـ حياة محمد ٠ يقول : ان على كل نبى ان يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ٠ وهذا البرهان يسمى بالمعجزة وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ـ ويسمى كرامة ـ والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ٠ فان جماله الأدبى الفائق ،

---

(١) فى كتابه المحمدية للبارون كارادى فو ـ طبعة باريس .

وقوته النورانية مايزالان الى اليوم لغزا لم يحل . وهما يضعان من يتلوه ولو كان أقل الناس تقوى فى حالة خاصة من الحماس لقد تحدى «محمد» الأناسى والجن ان يأتوا بمثله .. وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل . ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية . فان « محمد » . كان يحتقر الشعراء . ودفع عن نفسه ان يكون واحدا منهم .. ولكن الأمر يتعلق بشىء آخر غير هذه القيمة وهو الفرق بين وحى الاله . والهام الشياطين .

ونحب أن ننوه هنا ان القرآن هو المعجزة الأساسية لا الوحيدة للنبى (ص) . ولكننا كثيرا ما نصادف فى كتب المستشرقين هذا الجزم بان الرسول اعترف هو نفسه بانه ليس له معجزة أخرى غير القرآن ولسنا ندرى أين عثروا على هذا الاعتراف .

● وقد ذكر المؤرخ الكبير « جوستاف لوبون » أيضا عن القرآن الكريم . والدعوة المحمدية : حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ولو بعض الشىء من أسلوبه الذى مايزال غضا كان عهده وعهد رسالته بالوجود أمس .

هذا هو القرآن الكريم . معجزة نبى الاسلام ورسول السلام وسيد المرسلين وخاتم الرسل والانبياء عليهم السلام وصدق الله العليم الخبير العظيم الذى يقول :

- « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين »[1] •

- « قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[2] •

- « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »[3] •

---

(١) البقرة - ٢٣ •
(٢) الاسراء - ٨٨ •
(٣) النساء - ٨١ •

((محمد رســول الهدى))

وهذه بعض من الآراء الصحيحة التى هى الى جانب الاسلام والحق · وسنكتفى ببعض عبارات موجزة قيمة · شهد فيها أصحابها لرسول الاسلام · أو سجلوا فيها شيئا من سمو كتاب الله القرآن المجيد · ورفعته أو خلدوا بها جانبا من جوانب عظمة الاســـلام وامتيازه على غيره من الأديان الأخرى : والفضل ما شهد به الاعداء · ومن أروع ما كتبه المستشرقون عن « محمد » نبى الانسانية (ص) هو :

● ماكتبه المستشرق « رينولد نيكلسون » قال الشيخ العلامة : لم تجد الحياة الدينية الاسلامية مثالا أعلى فى أى إنسان الا فى شخصية النبى « محمد » (ص) · فاذا بحثنا فى الصلات التى يعتقد المسلمون بوجودها بين الله ورسوله من جهة وبين الرسول وأنفسهم من جهة أخرى · فقد وصلنا الى لب المسالة :

فالقرآن يعلن بان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه

هو الباطل · وان كل شيء هالك الا وجهه · وان كل من على الأرض · فان · ولا يبقى غير وجه الله · وان الله نور السموات والأرض · وأنه أقرب الى الانسان من حبل الوريد ·· وانه ما يكون من نجوى ثلاثة الا وهو رابعهم · ولا خمسة الا وهو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا وهو معهم ·

● ومن قوله أيضا : فالحقيقة المحمدية · لا الصورة المحمدية الجسدية · هى مبدأ الحياة · ومركزها فى العالم وهى الواسطة بين الله وعباده · والمنبع الذى يفيض منه علم العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه · وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية(١) ·

● وقال الأستاذ « كازانوفا » فى الجزء الأول من كتابه ــ محمد ونهاية العالم :

ان كل تاريخ النبى العربى يدل على أنه عملى · جدى ·· محمود ·· انه حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق عرف كيف يستمع آراء الغير · ويعترف بهفواته ويصلحها · ان محمدا وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وادراكاته للحياة الواقعية من جهة وبين تعاليم السماء من جهة أخرى ·

---

(١) المستشرقون والاسلام ــ للكاتب ــ المجلس الأعلى الاسلامى ص ٥١٠ ·

وقد ظلت هذه الفروق خالدة فى الاسلام الذى لا يخلط بين القرآن والسنة بل انه فى السنة نفسها يفرق بين ماله صفة الوحى به . وما هو شخصى لمحمد .

● وقول الأستاذ « كارادى فو » فى كتابه المحمدية :

ان « محمدا » أتم طفولته فى الهدوء . ولما بلغ ســـن الشباب اشتهر باسم الشاب الوديع المحمود . وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره . وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة .

● وقال « كارادى فو » أيضا : أن « محمدا » كان هو النبى والملهم والمؤسس. ولم يستطع أحد ان ينازعه المكانة العليا . ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عنصر آخر أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . ان شعور المساواة والاخاء الذى أسسه بين أعضاء الجمعية الاسلامية كان يطبق تطبيقا عمليا حتى على النبى نفسه .

● وقال الشاعر العظيم الفرنسى الفونس لامارتين :

ان محمدا أقل من اله . وأعظم من انسان عادى أى أنه نبى .

● ويقول الأستاذ « جارســـان دى تاسى » فى كتابه الاسلام :

ان « محمدا » ولد فى حضن الوثنية · ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة ·· انزعاجا عظيما من الرذيلة وحبا حادا للفضيلة · واخلاصا ونية حسنة غير عاديين الى درجة ان أطلق عليه مواطنوه فى ذلك العهد اسم ـ الأمين ·

● ويقول الأستاذ« ديزيريه بالانشيه » أيضا فى كتابه :

ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الابراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة · لأن فيه قوة كافية وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة والاستمرار فيها · فبماذا يمكن ان يهاجمه النقد ؟ : أفى تاريخ محمدا ؟!

انه تقريبا خال من الخوارق والمدهشات · وليس فيه تقريبا من المسلمات الا ما فى الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية فهل توجد هذه الخوارق فى الشعائر والطقوس ؟

● كما يقول الأستاذ « بلانشيه » المستشرق الفرنسى :

ان النبى محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة وهى :

انه أحيا شعبا ·· وانشأ امبراطورية ·· وأسس دينا

● ويقول « جيمس متشنر » فى مقاله ـ اخترت الدفاع عن الاسلام أيضا : وقد حرص « محمد » على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب · أى اليهود والنصارى

٠٠و لا شك أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود فى بعض الأحيان ٠ وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى اجبروا على القتال ٠ وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب ٠ ولكن الرهبان قطعوا :

بان أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ٠ وكانوا أحرارا فى عبادتهم ٠٠ ومما يؤكد صحة هذا القول :

ان الاسلام أمر بان تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب ٠ ولم يشرع الزام الناس بالاسلام بالقوة ٠ فمن تعاليمه الواردة فى القرآن الكريم : « **من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها** »[١] ٠٠ «**ولاتجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن** » ٠

● أما الكاتب الانجليزى المعروف « توماس كارليل » يقول فى كتابه الابطال وديانة الابطال : أنه لا يمكن أن يكون « محمد » كذوبا ٠ فانه ان كان كذلك فلا يستطيع أن يأتى بمثل هذا الدين العجيب ٠ والله ان الرجل الكاذب لا يستطيع ان يبنى بيتا من اللبن ٠ اذا لم يكن عليما بمواد البناء على اختلاف أنواعها ٠ فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الاسلام الذى ظل على قوته وعظمته قرونا طوالا ٠

---

(١) الاسراء ــ ١٥ ٠

● ومن هؤلاء المســـتشرقين أيضا الكاتب الانجليزى المشهور « هـ · ج · ويلز » الذى قال : ان من أدفع الأدلة على صدق « محمد » كون أهله وأقرب الناس اليه يؤمنون به فقد كانوا مطلعين على أسراره ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به ·

● ويقول « برنارد شو » : اننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم أجمع لتم له النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير ولحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة ·

● وقال « فنلى » فى كتـــابه ـ اليونان تحت حـــكم الرومان :

ان نجاح « محمد » كمشـــرع بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدما فى القانون مدى أجيال طويلة فى شتى نواحى الهيكل الاجتماعى دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة ·

● وقال «كارليل»(١) : أيضا أتريد دليلا ممن يدعى لك أنه بناء أقوى من أن يبنى لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قرونا طويلة لا يعتريها تصدع ولا يعتورها أقل خلل · كذلك هل يطلب طالب من مدعى النبوة دليلا أقوى

---

(١) توماس كارليل المؤرخ الانجليزى الكبير يقـال انه اكثر عقل ولدته بريطانيا بعد شكسبير . وله مؤلفات كثيرة .

من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يستمرون عليه قرونا طويلة ويتحمسون له تحمسا كبيرا ٠

فمحمد قال بانه رسول من عند الله ٠ وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين ومضى عليهم فى ذلك قرونا طويلة - وهم يحبون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمس ، فماذا يرد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟

الا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق البنكنوت فالصادقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة ٠ والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح أمرها وتعرف انها زائفة فتمزق كل ممزق ٠

● وقال الفيلسوف الكبير الشاعر الفرنسى « لامارتين مارى لوى دى »[1] : الذى عرف بحبه للشرق وتعمقه فى الدراسات الشرقية والاسلامية : ان حياة مثل حياة « محمد » وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده ٠ ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه ٠ وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان وايمانه بالظفر ٠ واعلاء كلمته ورباطة جاشه لتثبيت اركان العقيدة الاسلامية ٠ ان كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل ٠ فهو فيلسوف ٠ وخطيب ٠٠ ورسول ٠ ومشرع ٠ وهادى الانسان ٠

---

(١) ولد سنة ١٧٩٠ م ٠ وتوفى سنة ١٨٦٩ م ٠

● وقول « طور اندريه » • و « جورج فارســـيه » فى كتابهما ـ العالم الشرقى ـ عن « محمد » (ص) : كان شجاعا يخوض المعركة بنفسه ليرد الثبات الى قلوب الذين يضعفون • وكان رحيما بالضعفاء يأوى فى بيته عددا كبيرا من المحتاجين • وكان مع احتفاظه بهيبته كاملة • بسيط الحركات لا يتكلف شيئا • بشوشا سهل المعاملة • رقيق الحاشية • لا يثير غضبه أهل الفضـــول والسماحة وكان « محمد » رجلا • وكان فيه لاشك كثير من الخلال التى اتسم بها رجال عصره • ولكنه حمل الى هؤلاء الرجال مثلا رفيعا فى الدين والأخلاق وسما سموا بالغا عن الآراء القديمة التى كانوا يرزحون تحت ثقلها وهو أن جميعهم عصـــبة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع قد صنع منهم قوة • قدر لها فيما بعد • ان تهز أركان العالم القديم •

● كما وصف المستشرق النابه « الفونس ايتين دينيه » الفرنسى الذى اسلم وتسمى « ناصر الدين » مولد الرسول (ص) الكريم فى كتابه « حياة محمد » • ولم يغفل اعجابه بالاسلام وتعاليمه حين قال :

الح الآن شعاعا ورديا يتدفق فى الأفق والنجوم يبهت لونها • ويطرق سمعى لحن موسيقى يتردد صداه فى هداة الليل : الله اكبر • لا اله الا الله محمد رسول الله • حى على الصلاة •• حى على الصلاة • حى على الفلاح •• حى على الفلاح •• والالحان الأخيرة من هذا النداء الذى يرســـله

المؤذن ترتفع من المنارات الشاهقة · فوق أعالى البيوت ··
وذوائب نخيل الغابة ذاهبة الى حبيب تغنى فى جنبات
الصحراء اللانهائية · وفى كل يوم كلما غيرت الشمس من
ألوان ضوئها فى فجرها الارجوانى وظهيرتها المحتدمة · وفى
عصرها المذهب · وفى مغربها المخضوب بصفرة الحزن على
فراقها · وفى تكفنها أخيرا باوشحة من ظلام الليل يرى
المسلمون جميعا أنه من المحتم عليهم أن يتجردوا من أعمالهم
وشواغلهم · ليس فقط فى المساجد بل أيضا فى البيوت · وفى
الشوارع والأسواق · وفى الحقول والصحارى · وفى كل
مكان لكى يمجدوا مفيض الخير جل سناه ·

● أما السير « وليام ميوير » الانجليزى · فيقول فى
كتابه حياة محمد : ومن صفاته الجديرة بالتنويه والاجلال
الرقة والاحترام · اللتين كان يعامل بهما اتباعه حتى أقلهم
شأنا · فالتواضع والرأفة والانسانية · وانكار الذات
والسماحة والاخاء تغلغلت فى نفسه ووثقت به محبة كل من
حوله ·

● ومما قاله أيضا «توماس كارليل» فى كتابه الأبطال :
لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا
العصر · ان يصغى الى تلك الاتهامات التى وجهت الى
الاسلام ونبيه · وواجبنا ان نحارب ما يشاع من مثل هذه
الأقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التى أداها ذلك
الرسول الكريم مازالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون
من الناس ·

والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء . ومحمد (ص) كان كذلك . وكان فوق ذلك الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة . وماكلمته الا صوت صادق صادر الى العقل . وناشـــر العقائد المعقـولة الموافقة للذهن واللب ومؤسس دين لا فرية فيه ولا صور ولا رقيات .. ومنشىء عشرين دولة فى الأرض وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد فأى رجل ادرك من العظمة الانسانية مثـل ما أدرك .. وأى انسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ .

● ويقول سير « وليام موير » فى كتابه حياة محمد :

ان من صفات « محمد » الجديرة بالتنويه . الرقة .. والاحترام اللذين كان يعامل بهما اتباعه حتى اقلهم شأنا . فالرقة . والتواضع وانكار الذات والرأفة والاناة والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله وكان يكره أن يقول (لا) . فاذا لم يتمكن من أن يجيب الطالب .. فضل السكوت . وقد قالت عنه السيدة « عائشة » رضى الله عنها : انه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها . وكان اذا ساءه شىء يظهر فى أسارير وجهه أكثر من كلامه . ولم يمس أحدا بالضرب الا فى سبيل الله .

ويؤثر عنه (ص) أنه كان لا يمتنع عن اجابة دعوة الى بيت مهما كان حقيرا .. أو يرفض حبة مهداة اليه مهما

كانت صغيرة • واذا جلس الى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخا منه وكبرا • وكانت له تلك الحلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن انه المفضل المختار •

وكان يرثى كثيرا للثكلى والمنكوبين واليتامى • كما كان سهلا لين العريكة مع الاطفال • وكان يشرك غيره فى طعامه حتى فى أوقات العسر والاقلاق • ويهتم جهد الطاقة بتوفير اسباب الراحة لانصاره وتابعيه •و كان صديقا وفيا • كما كان فى ممارسته للحكم عادلا • رحيما رفيقا حتى باعدائه• وقد أصدر عفوا عاما عن مشركى مكة رغم مالاقى منهم من سخرية واهانة واضطهاد • وتلك الخلال العالية هى جماع الفضائل الانسانية • وهى آية على أنه كان مؤسسا لديانة سماوية لا تطلعا الى ملك دنيوى •

● يقول «ادوار جورج» فى كتاب الأديان العظمى •• الذى أصدرته مطبعة جامعة برنستون • صاحب الفصل المخصص للدين الاسلامى : ان ايمانه الذى لا يتزعزع برسالته الالهية • وصدق دعوته يقيمه مثلا فريدا فى التاريخ وان اعتقاده بالمغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه لهو اللحمة التى تنسج حوله بشارته وعظاته • ومن ثم أصبحت رسالة السيادة الربانية العليا • ضرورة عاجلة ملحة •• وتلك الرسالة العلوية الموحاة الى محمد وبغيرها لايتاتى لنا أن نفهم الوحدانية فى الاسلام •

● ومن أحدث المترجمات الى اللغة الانجليزية كتاب

العالم البلجيكى « هنرى بيرين » عن « محمد » و «شارلمان » ·· فمضمونه يتلخص فى بيان أسباب الانقلاب · الأوروبى الذى ينسبه الى « شارلمان » · ولكن المؤلف يرى أن الفضل فيه « لمحمد » واتباع « محمد » · ويقول فى فاتحة الجزء الثانى منه : ان الفتح العربى الذى أوقع ما أوقع من القلق فى أوربا وآسيا لم تكن له سابقة ولا تقارن سـرعته بغير السـرعة التى قامت بها دولة المغول بقيادة « آتيلا » · و « جنكيزخان » و « تيمور لنك » · لولا أن هذه الدول زائلة · ودولة الاسلام باقية · فلم يزل للأسلام اتباعه فى كل بلد دخله الخلفاء الاولون وقد كان ذيوعه كذيوع البرق معجزة حقيقية ·

● وقول المسيو « كازانوفا » أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانسى ببارس : ان كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلقه عملى جدى محمود أنه حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق · عرف كيف يستمع آراء الغير · ويعترف بهفواته ويصلحها · ان محمدا · وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وادراكا للحياة الواقعية من جهة وبين تعاليم السماء من جهة أخرى · وقد ظلت هذه الفروق خالدة فى الاسلام الذى لا يخلط بين القرآن والسنة · بل انه فى السنة نفسها يفرق بين ما له صفة الموحى به · وما هو شخصى لمحمد · وقال :

ان محمدا أتم طفولته فى الهدوء · ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود ·

وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره . وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة .

ان محمدا كان هو النبى والملهم والمؤسس . ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا . ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عنصر آخر . أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . ان شعور المساواة والاخاء الذى أسسه بين اعضاء الجمعية الاسلامية . كان يطبق تطبيقا عمليا حتى على النبى نفسه .

وفى وسط الاضطرابات التى كانت تسود العالم ابان الحرب العالمية الثانية وتنافر الدول وتناحر الشعوب .

● ويقول « برنارد شو » أيضا : انه لو تولى العالم الأوروبى رجل كمحمد لشفاه من علله كافة .

● وفى كلمة للسيد « فارس الخورى » فى ذكرى مولده الشريف[1] :

ان محمدا أعظم عظماء العالم . ولم يجد الدهر بعد بمثله والدين الذى جاء به أوفى الأديان وأتمها وأكملها .

● وعقد العالم الدكتور « ماركس دودر » فى كتابه ـ محمد وبوذا والمسيح ـ مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح . فسأل : أليس محمد نبيا على وجه من الوجوه ؟ .. ثم أجاب

---

(1) نشرته الصحف .

قائلا : انه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الانبياء .. فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة . وانه لخليق فى هذه الفضيلة أن يسامى أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بنى اسرائيل لأنه جازف بحياته فى سبيل الحق وصبر على الايذاء يوما بعد يوم عدة سنين . وقابل النفى والحرمان والضغينة . وفقد مودة الاصحاب بغير مبالاة فصابر على الحملة قصارى مايصبر عليه انسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة . ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على اسكاته وعد ولا وعيد ولا اغراء ..

وقد بدأ العلماء الفرنسيون الآن يتحررون من ضلالاتهم العتيقة . وراحوا ينصفون مؤسس الاسلام . ومن ذلك :

● مايقوله « جوستاف لوبون » : اذا كانت قيمة الرجال تقدر بعظمة أعمالهم فانه يكون من المستطاع أن نقول : ان محمداً كان من أعظم الشخصيات التى عرفها التاريخ .

● وقد كتب « توماس كارليل » : عن نبى الاسلام فى القرن التاسع عشر . وقد كانت كتابته عنه متسمة بسمة الاعجاب والانصاف . لا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرا منها . فلقد أراد الكاتب « توماس » أن يختار مثلا واحدا . البطولة فى صورة النبى . فلم يجد أحدا أحق بالاختيار فى هذا المقام من محمد عليه السلام . حيث قال :

إن الذين يزعمون أن محمدا نشر دعوته بالسيف لا يتصورون ما يقولون · فقد كانت دعوة محمد · دعوة رجل واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه وليس أعجب من صورة رجل واحد يحمل السيف ليقنع به كل منكريه ·

ولقد تقدمت دراسة التاريخ فى القرن العشرين وتتبع الأوربيون أصول حضارتهم فعرفوا إنها مدينة بالقسط الوافر للحضارة الاسلامية · وان عصر العرب فى الاندلس كان من العصور الذهبية فى تاريخ القارة الأوربية · وعمل رد الفعل عمله فكان أشد الناس اعجابا بالحضارة العربية · أولئك الكتاب الذين نشأوا فى الاندلس نفسها · وفتحوا عيونهم حيث بلغ التعصب على العرب غاية مداه · فاذا قرأت كاتبهم الأشهر « بلاسكو اباتيز » لمست فى كلامه حزنا عميقا على زوال الحضـــارة العربية من الاندلس · وقد ختم بعض فصوله عنها قائلا :

ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الأسبانية فى غياهب الظلمات ··· الخ ·· هذه النظرة الى تاريخ الحضارة والى المقارنة بين الحضارات · قد كان لها أثرها فى تعديل الميزان الذى يوزن به رسل الأديان · وأولهم رسول الاسلام ·

فمن كتب عن محمد (ص) فى القرن العشرين · علم أنه مطالب بحكم العصر الذى يعيش فيه · ان يقول شيئا يوافق العلم وينسب الى التعصب او الجهالة · فلا يزن محمدا

بميزان غير الذى يزن به الرسل والأنبياء من سائر الملل والدعوات ومن لم يكن من هؤلاء الكتاب مرتزقا بالدين فهو يخجل من التحامل على صاحب دين كبير بغير سبب • الا انه ولد على غير دينه • وهو يبرىء عقله من وصمة التعصب الضيق بمحاولة الانصاف ما استطاع •

● وقد كتب احد العلماء الدينيين الذين يحاسبون السنتهم واقلامهم • ويجتهدون فى قول الحق على حسب طاقتهم • وهو :

● الدكتور « بوكيه » كتابا عن الأديان المقارنة فقال عنه انه نشر فى الشرق مثلا اعلى للحكم والاخلاق الانسانية اوسع وانظف واحدث واقوى من امثلة الدولة البيزنطية ثم قال : وانه الحكم على شخصيته ايضا ليتطلب الانصاف من اولئك الذين ينظرون اليها بعين الغرض فان الاخبار التى لا داعية للشك فيها تصوره لنا فى صورة رائعة من الجمال بوجه مليح فطن • وعينين سوداوين نفاذتين ولحية سابغة ورصانة فى القول وبلاغة صادرة مع عطف فى طيب حالاته • وحنان على الأطفال ويجب أن نعلم أن هؤلاء الكتاب غير مسلمين • فهم لا يقولون فى النبى كل ما يقوله المسلم • ويكفى منهم انهم لا ينكرون كل ما يقوله عن تعنت او مكابرة بغير دليل •

● والعالم الهندى « ت • ل • فسوانى » قال : تأملت

أمر محمد • فتعجبت من هذا الرجل العظيم الذى نشأ بين أولئك القوم المختلى النظام • الفاسدى الاخلاق • العابدى الاحجار • هذا الرجل « محمد » وقف تقريبا وحده شجاعا متحديا غير هياب • ولا وجل فى وجه التوعد بالقتل • فمن أعطاه القوة التى قام بها وكأنه بطل من أبطال الأساطير • ثم استمعوا بكلامه • فمن أين جاء سحر بيانه • ثم انظروا الى أعماله كيف ألف بين النبلاء الاشراف والصعاليك المنبوذين حتى صاروا اخوانا وخلانا •• فنحن هنا فى الهند الى الآن لانزال نقتتل من أجل جواز لمس البعض منا البعض الآخر • وعدمه • ولانزال عاجزين عن اباحة الدخول الى بيوت الآلهة المنبوذين من ابناء جلدتنا •

ـ من أين استمد « محمد » قوة حياته الغالية ؟ •• الهند الى الآن مصابة بشرب الخمر • والرجل محمدا •• كما تقول الكتب المقدسة اقترح مقاطعة الخمر • وكل شراب مسكر فقام أصحابه واتقوا دنأن الخمر فى أزقة المدينة وحطموها تحطيما •

ـ ولقد تصرف محمد فى قومه كالتنويم المغناطيسى • فمن أين جاء سر هذه القوة ؟ •

الم تر انهم كانوا أشتاتا قد عمتهم الفوضى فألف بين تلويهم وجعلهم أمة واحدة • وكانوا راسبين فى التوجس فرفعهم وأنقذهم •• وجعلهم عظماء أقوياء فى عين أمم

الأرض كلها ٠ فصارت الأمة العربية صاحبة القيادة العليا فى التمدن ٠ وصارت اللغة العربية آخذة بيمينها مصباح التهذيب والرقى والتهذيب العربى هو الذى أنشأ فى آسيا وأوروبا نشأة جديدة وانسانية جديدة ٠

اليك يامحمد (ص) ٠ أنا الخادم الحقير ٠ أقدم اجلالى بخضوع وتكريم ٠ اليك اطأطىء رأسى ٠

انك لنبى حق من الله ٠ قوتك العظيمة كانت مستمدة فى عالم الغيب الأزلى الأبدى ٠

● وقال الدكتور « صبحى محمصانى » فى كتابه العرب والحضارة الحديثة » : ان مازعمه بعض المستشرقين من أن الشريعة الاسلامية مقضى عليها بالخمول ٠ قول فاسد ٠ وقال : ان أبرز ملامح الشريعة الاسلامية :

١ ـ ان الاجتهاد واجب فيها ٠ والتقليد الأعمى محرم ٠

٢ ـ ان توسيع الفقهاء فى اولية التشريع مصادرة الأخذ بمبادىء الانصاف المطلق بطريق الاستحسان والاستصلاح ٠

٣ ـ ان الشريعة الاسلامية ليست مذهبا واحدا ٠ بل مجموع المذاهب كل ذلك كان له أثر فى جعل الشريعة الاسلامية من أعدل الشرائع واقربها الى المثل الاجتماعية العليا ٠

٤ ـ ان قاعدة تعبير الاحكام تطبق فى جميع المسائل التى لا يوجد فيها نص فى القرآن والسنة ٠

فالتشريع الاسلامى كان ومازال قادرا على التجاوب مع المجتمع وقد فتح التشريع الاسلامى أبوابا للحفاظ على الغاية الاجتماعية والاقتصادية وقاعدة تغير الاحكام بتغير الأزمان مسالك لصرف التشريع الى غايته الأساسية وهى تحقيق مصلحة المجتمع الانسانى ٠ وقال :

ان التشريع الاسلامى كان قابلا للتطور والنمو وملاءمة الأمكنة والأزمنة المختلفة التى مرت عليه ٠

● وان قول الكاتب المشهور « برنارد شو » لخير شاهد مع الاسلام الحنيف على كل مكابر أو جاحد حيث قال :

وانى لاعتقد أن رجلا كمحمد ٠ لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير ٠ وحل مشكلاته على وجه يكفل السـلام والطمأنينة والسـعادة المنشودة ٠

● وقد تحدث « بورث سميث » عن جهود الرسـول (ص) ٠ فقال : من حسن حظ التاريخ ان محمد ا أسس فى وقت واحد ثلاثة أشياء من عظائم الأمور وجلائل الأعمال : فانه مؤسس لأمة ٠ وامبراطورية ٠ وديانة ٠ ومع أنه أمى فقد اتى بكتاب هو آية فى البلاغة ٠ ودستور للشرائع والصلاة

والدين فى آن واحد . وهو كتاب مقدس الى هذا اليوم عند سدس العالم . وهو معجزة محمد القوية . وحقا انا لمعجزة .

● وقال « ادموند يورك » : القانون المحمدى قانون ضابط للجميع . من الملك الى أقل رعاياه . وهو قانون نسج باحكم نظام حقوقى وأفضل قضاء علمى . وأعظم تشريع عادل . لم يسبق قط للعالم ايجاد مثله .

هذا بعض ماكتب عن النبى (ص) فى مصنفات الغرب الحديث . وقد اقتبسنا أحدثه وأدله على اتجاد الكتابة العصرية فى سيرة الرسول الكريم (ص) .

ومن هذه النبذات القصيرة يتبين للقارىء الكريم انه ما من احد كتب عن الرسول . وتوخى أمانة العلم والحقيقة المجردة من كل غاية . الا أعطاه حقه من قول الله فيه : « وانك لعلى خلق عظيم » .

الاســلام دين الحضــارة

اذا كان المجال هنا لا يتسع لتعداد ما حققه العرب من الاكتشافات العلمية التى أحصـــاها المنصفون من العلماء والمؤرخين الأوروبيين ، فحسبنا أن نذكر هنا شهادات بعض من الفلاسفة والمستشرقين والكتاب والعلماء المنصفين :

● يقول الــكاتب الفرنسى « رينيه ميليه » فى كتابه الاسلام والحضارة الحديثة : هذا وان كانت هناك حقيقة يجب أن نبينها · فهى أنه فى هذه الفترة التى تعارف فيها المسلمون والمسيحيون منذ انتهاء الحرب الصليبية الى فتح القسطنطينية · كان الاسلام هو العنصر المؤثر · والعالم الأوروبى هو العنصر المتأثر · ومن جهة العلوم والآداب فان أوروبا لبثت ثلاثمائة سنة تقتبسها من الاسلام · وكانت المدنية الغربية تجنى ثمارها اليانعة ·

● ويقول « أميل درمنجم » فى كتابه ـ القيم الخالدة فى الاسلام : ان حضارة الاسلام تقوم على رسالة سماوية ··

لنظامها الاجتماعى يقوم على أسـرة متماسـكة ونظامها الاقتصادي يعتبر المال وسـيلة لا غاية · ويحترم الملكية الفردية غير المستغلة · وثقافتها تستخدم العقل فى كسب المعارف · ولا شك ان لدى المسلمين أكبر ذخيرة من القيم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية وقد قامت الحضـارة الأوروبية المعاصرة على الأسس العلمية والفكرية للحضارة الاسلامية · ولكنها لم تقم على الأسس الروحية والخلقية لحضارة الاسلام ·

● وقد وصف « الدوس هكسلى » : مادية الحضارة الأوروبية بقوله : ان الحضارة الأوروبية قامت على التفوق الذهنى وحده · وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للانسانية الا القوى المادية والترف · ولكنها أهملت تربية عواطفه واخلاقه وفضائله الروحية ·

● ويقول « جوستاف لوبون » : ولقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية ·· ففى القرن السابع الميلادى هب المسلمون من شبه جزيرة العـرب ليكونوا امبراطورية عظيمة مترامية الأطـراف · فسارت الحضارة فى ركابهم أينما حلوا · او صاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا · فلم يقتصر أثرهم الحضارى على الشرق · وانما كان تأثيرهم فى الغرب لا يقل خطورة واهمية ·

● ويقول « جوستاف لوبون » أيضا فى كتابه حضارة العرب :

كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية تجلت له أمور جديدة . واتسعت أمامه الآفاق وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب . فانهم الذين مدنوا أوروبا فى المادة والعقل والخلق . ومتى درس المرء ما عملَ العرب وماكشفوه فى العلم يثبت له انه ما من أمة انتجت مثل ما انتجوه فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاءها . واذا نظر المرء فى صنائعهم ونقوشهم . لا يسعه الا الاعتراف بانه كانت لهم ميزة خاصة لم تبلغها أمة .

وقد اعترف « جوستاف لوبون » بمدنية العرب : اذا استثينا القليل من الشعوب نرى ان العرب قد بلغوا من المدنية درجة عظيمة لم تبلغها شعوب الأرض فى مثل تلك الفترة القصيرة من التقدم . والحضارة . كان دين العرب من أعظم الأديان فى التاريخ نقلوا حضارتهم العلمية والأدبية والفنية .

● ويقول « همبولدت » : انه ينبغى علينا أن ننظر الى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية .

● والعالم الفرنسى « بارتيليمى سانبهلير » فى كتابه محمد والقرآن . يقول بسبب مخالطة العرب ومحاكاتهم استطاع اشرافنا فى العصور الوسيطة أن يجعلوا طباعهم الفظة لينة . وعرف فرساننا . دون أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم عواطف أكثر نبلا ورقة وانسانية . ومن المشكوك

فيه ان تكون المسيحية رغم ماتقدمه من خير هى وحدها التى الهمتهم هذه الأحاسيس ٠

● ولقد اعترف العالم الاجتماعى الفرنسى الشهير « جوستاف لوبون » ٠ بفضل العرب بقوله : ما من مؤلف أوربى حتى القرن الخامس عشر الا وعلمه منقول عن علوم العرب ٠

● والفيلسوف الأمريكى « درابر » يقول : تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد الا فى زماننا ٠ كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال أنواعها فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى مدارسهم ٠

● ويقول « جوستاف لوبون » : ان فلاسفة العرب والمسلمين هم أول من علم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ٠

هذا الفضل الذى شهد به المنصفون من علماء الغرب :

● « سيديو » العالم الفرنسى الذى قال : ان انتاج العرب أفكارهم الغزيرة ومخترعاتهم النفيسة تشهد انهم أساتذة أهل أوروبا فى جميع الأشياء ٠

● وصدق « كارتيسكى » حينما قال : ان الخدمات التى أداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين

وان الأبحاث الحديثة قد دلت على أن علماء المسلمين قد نشروا العلم : بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى ·

● وقالت الدكتورة « سيجريد هولكة » فى كتابها شمس الله على الغرب : ان أوربا تدين للعرب والحضارة العربية وان الدين الذى فى عنق أوروبا وسائر القارات للعرب كبير جدا · وان هذه الطفرة العلمية التى نهض بها ابنـــاء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى ·

وعن فضل الاسلام فى نهضة المدنية الغربية · اعترف بذلك أيضا :

● الاستاذ « بريفوت » فى كتابه تكوين الانسانية(١) :

لم تكن ايطاليا مهدا لحياة أوروبا الجديدة · بل اسبانيا ـ الأندلس ـ لأن أوروبا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة · بينما العالم العربى : بغداد · والقاهرة وقرطبة ، وطليطلة · كان مركز الحضارة والنشاط العقلى ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نمت فى شكل ارتقاء انسانى جديد(٢) ·

● ويقول « لوبون » : ولقد كان اثر حضارة المسلمين

---

(١) رينيه ص ١٩ هامش ·

(٢) كتاب فضل الحضارة على العالم للكاتب ·

فى الغرب قويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية • وقد اثبت مؤرخو العلوم الحديثة من الأوروبيين • انه لولا العرب لضاع اكثر العلوم القديمة • ولتأخرت نهضة أوروبا الحديثة سنين لا يعلم مداها الا الله •

● ولقد اعترف العالم الاجتماعى الفرنسى المشهور «لوبون» بفضل العرب بقوله : ما من مؤلف أوروبى حتى القرن الخامس عشر • الا وعلمه منقول عن علوم العرب ـ ثم ذكر عددا وفيرا من علماء أوروبا فى ذلك الزمن • وقال : أنهم كلهم أما متتلمذون للعرب او نقلة لكتبهم • وان الكتب المترجمة من العربية لاسيما الكتب العلمية منها كانت الى مدى بعيد الأساس الذى قام عليه التعليم فىجامعات أوروبا نحو خمسة قرون • وفى بعض العلوم ظل تأثير العرب فى أوروبا باديا الى عهد قريب •

● ولقد ذكر الدكتور « لكلير » : ان مجموعة الكتب التى ترجمت الى اللغة اللاتينية عن طريق العربية فى القرنين الثانى عشر • والثالث عشر • كانت نواة للنهضة الأوروبية ثلاثمائة كتاب • منها مئتا كتاب لمؤلفين عرب • ومائة لمؤلفين يونان ••

● وهذا هو العلامة « جورج سارلون » • احقاقا لحقائق التاريخ وتشويها لمعالم الحضارة الحقيقية وانكارا لأصحاب الفضل الأول فى هذه الحضارة • واصالة دور

العرب فيها بقوله : إنه من سذاجة الأطفال ان نفترض ان العلم بدأ فى بلاد الاغريق لأن المعجزة اليونانية - سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر . وبلاد مابين النهرين . وغيرها من البلدان . أما العلم اليونانى . فكان احياء . أكثر منه اختراعا . ثم يقول : كفانا سوءا اننا اخفينا الأصول الشرقية التى لم يكن التقدم اليونانى مستطاعا بدونها .

● اما الأستاذ « ملهود » فيقول : انها لحقيقة ذات بال ان العلم والحضارة اليونانيين لم يبعثا الا بعد الهجرة لوادى النيل .

وهكذا انتقل العلم قديما من بلادنا الاسلامية الى الغرب فنهض به وسار على هدى نوره حتى وصل الى مدى بعيد من مجال البحث والاختراع وان ملوك أوروبا وحكامها كانوا حريصين بعد ان علموا ما عليه الاسلام والعرب من حضارة على ان يسايروا الركب . فتوالت على جامعات الأندلس البعثات الأوروبية لتلقى العلم والفنون والصناعات . بل ان ملوك انجلترا ارسلوا من يقتبس فنون الفروسية . والصيد والرياضية فنا . حتى ان الملك « جورج الثانى » ملك انجلترا أرسل ابنة أخيه الأميرة « دونانت » ورئيس ديوانه على رأس بعثة مكونة من ثمانى عشرة فتاة من بنات الأمراء والاشراف الى اشبيلية لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك وكل ما يؤدى الى تهذيب المرأة .

وارســــل الملك الجرمنى وفدا برئاســـة وزيره الأول « ويليمين » الذى سماه الاندلســـيون « وليم الأمين » للتعلم من المسلمين ·

وكذلك الملك « فيليب » ملك بافاريا · ارسل بعثة الى الاندلس بعد أن استأذن الخليفة « هشاما الأول » لدراسة الادارة والحكم · وعند عودة البعثة أمر الخليفة ان يرافقها مستشاورن وخبراء الأندلس ليعاونوا الملك « فيليب » فى كل مايريده ثم أخذ بعض ملوك أوروبا ينسجون على منوال الملك البافارى(١) ·

● وقد أعجبنى وصف للمفكر العربى « جبران خليل جبران » رئيس رابطة شعراء المهجر فى شمال أمريكا · جاء فيه :

ان الغربيين كانوا يتناولون ما نطبخه فيمضغونه · · ويبتلعونه محولين الصالح منه الى كيانهم الغربى ·

ولم يكن فضل الاسلام وعلمائه على أوروبا من ناحية العلم فقط · بل كان له الفضل فى نهضتها المدنية · واعترف بذلك :

● الأستاذ « بريفوت » فى كتابه تكوين الانسانية فى قوله السابق : وهكذا · فان الاسلام دين حضارة لم تقم

---

(١) كتاب فضل الحضارة الاسلاميـة والعرب على العـالم للمـؤلف ·

لغيره حضارة خاصة به · وقد أضفى على كل البلاد التى شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى والعلاقات الانسانية والاجتماعية · كما أن المسلمين أخذوا من الحضـارات السابقة وتفاعلت حضارة الاسلام مع العالمية الأخرى · وهذا هو ناموس الحياة · فكانت حضـارة متكاملة · وستبقى من أجل الانسانية مدى الحياة ؛ ·

● كما قال الأستاذ « كويلر يونج » أستاذ مادة العلاقات الأجنبية فى جامعات برنستون » : كل الشواهد تؤكد أن العلم الغربى مدين بوجوده الى الثقافة العربية الاسلامية كما أن المنهج العلمى الحـديث القائم على البحث والملاحظة والتجربة · والذى أخذ به علماء أوروبا · انما كان نتاج اتصال العلماء بالعالم الاسلامى عن طريق دولة العرب فى الاندلس ·

● وجاء فى كتاب القيم الخالدة فى الاسلام « لأميل درمنجم » : لكل حضارة أو دولة فى التاريخ · بل لكل جنس أو مجتمع بشرى شخصية متميزة بخواصها وصـفاتها اللازمة · وقيمة الأمة الاسلامية · ليست فقط فى أثرها التاريخى وهو تصـفية تركة العالم القديم · وتغيير نظم الحكم على ضفاف البحر المتوسط · فتلك أمة من صميم تركيبها تشتمل على تعاليم ونظم مازالت الى يومنا هذا حية قوية بل وقد كتب لها الخلود ·

وحضارة الاسلام لا تحتقر الأمور الدنيوية · ولكنها تعتمد أيضا على الروحية · وترمى الى مثل أعلى رفيع فهى

تجمع بين الدين والدنيا . وهى لذلك بعيدة عن النفعية وعن الرهبانية على حد سواء .

● ويقول المستر « ليترى » : لو حذف العرب من التاريخ لتأخرت نهضة الآداب عدة قرون فى الغرب .

● والأستاذ « بريفولت » قال : ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة .بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا . انه مدين لها بوجوده نفسه .

● أما الدكتور « لويجى رينالدى » يقول : اجتاح العالم الغربى حوالى الف سنة ميلادية غزو اسلامى جديد كان كالسيل الجارف ولم يكن أى حاجز يقوى على صد ذلك الغزو الذى يحمل التهذيب العربى .

والمدنية الاسلامية . فان شعب الصحراء العظيم . ظهر على وجه الأرض بعد سقوط المدنيتين الرومانية واليونانية واندثار معالمهما . وعقب ذلك . وبذلك قام العرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى باعادة نور الحضارة والمدنية الذى كان قد انطفأ فى جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية .

وقد يحزننى ويحزن غيرى ممن ينصفون ان يكون بيننا نحن الأوروبيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار

العرب وحسبانهم من أمة أدنى من أممهم وان نرى كلمة عربى عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن ، فان هذا الشعب مايزال يحفظ صفاته العجيبة وذكاءه النادر .

● والاستاذ « سيديو » يقول : كان العرب والمسلمون وحدهم ممثلى الحضارة فى القرون الوسـطى قد حرروا توحش أوربة التى زلزلتها غارات أمم الشمال . وماشقة علماء مدرسة الاسكندرية بين خط مجيد أثناء انحطاط روما واحتضارها نقف فى القرن السادس . من تاريخنا . ولم يشتعل النور فى أوروبا ثانية الا بعد ثمانية قرون . فهل كانت هذه الفترة الطويلة تجاه العالم بأسره دور جهل وتوحش هنالك ظهر العرب .

ان العرب المسلمين كانوا أساتذة أوروبا كلها فى جميع فروع المعرفة وان ما شـيد من المدارس والجامعات فى أرجاء دولتهم . كان يوقد مصباح الحضارة فيمابين الشرق الأقصى وبين هركول (مضـيق جبل طارق) ناشرا آثار الفن العربى الرائع فى كل مكان عاملا على تجديد الدم فى عروق العالم الهرم .

● ويقول المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » أيضا : أن حركة الرينسانس ــ النهضة الغربية الحديثة . لا يمكن ان تؤرخ بأمانة أو تفهم بوضوح الا اذا ارتبطت بما انتقل الى أوروبا من تراث الفكر العربى عن طـريق تركيا أو الأندلس عن طريق صقلية وثغور البحر المتوسط .

ولعل التعصب الديني هو الذى حمل الغرب دائما على تشويه منجزات المسلمين والعرب العظيمة وطمس مساهمتهم الأساسية فى الحضارة الأوروبية ٠ وان طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم الاسلامى منذ ظهور الاسلام الى يومنا الحاضر لتبين كيف يمكن للعواطف والاهواء ان تملى التاريخ بصورة معينة ٠ أى بصورة مشوهة وأبعد ما تكون عن الصدق ٠

والحقيقة ان سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم ؛ لقد كشف انتصار الاسلام وجود عالم متوجه منذ أكثر من الف عام نحو الشرق ٠ فأسرع الغرب يرفع تجاه الغزو الاسلامى شعارا جديدا اعتصم خلفه طوال قرون ٠

وان قواميس اللغة الأوروبية تعج بالكلمات العربية سواء ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الأطعمة أو الألبسة أو العقاقير ٠ وكذلك الأمر فيما يتعلق بالملاحة وفنونها ٠

لقد نقل الغرب عن العرب والمسلمين فكرة البريد الذى كان الحمام الزاجل الناقل للرسائل فى أصله ؟ لقد نقل الأوروبيون الى بلادهم فنون الزراعة وأساليب الرى المطبقة فى بلاد العرب ٠ كان الاستحمام والتطيب بالعطور مستعارا من المسلمين ٠ هكذا فان الحصار الذى فرضته أوروبا على نفسها ضد الاسلام قد خرق مرات عديدة ومتوالية بحيث

اصبح مئات الألوف من الغربيين أسرى الحضارة الاسلامية وتلامذة لها :

ـ ان سائر الأمم المتحضرة اليوم تستخدم الأرقام العربية ويعود الفضل فى تعريف الغرب على الأرقام العربية الى « الخوارزمى » الذى نقلت كتبه جميعا الى اللاتينية وكانت مرجعا هاما للعلماء الغربيين ٠

ـ وان « الفرغانى » كان سباقا الى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات فى الاتجاه المعاكس للحركة النهارية ٠

ـ اما « ثابت بن قرة » : فقد حسب الارتفاع الشمسى الظاهر ٠ وطول السنة الشمسية ٠

ـ أما « ابن الهيثم » فانه أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه الجسم المنظور بل بواسطة اشعة تطلقها الأجسام المضيئة الى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف ٠

ـ ان أوروبا قد تعرفت الى اهم مؤلفات القدماء بواسطة العرب الذين الهبوا فى أوروبا بفضل تراجمهم وتعليقاتهم روح البحث العلمى ٠ فقد نقلوا ارقامهم وأدواتهم الحكمة حسابهم ٠ جبرهم ٠ علم مثلثاتهم ٠ علم بصرياتهم ٠

● والأستاذ « لويس ماسينيون » يقول : لقد كانت اللغة العربية فى نظر كثير من الباحثين الغربيين وأنا منهم

وماتزال لغة الحرية العليا ووحى الحب والرغبة التى تطلب الى الله من خلال الدموع ان يكشف وجهه الكريم ٠

● اما الأستاذ « كاجورى » فقال : ان العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر ٠ الواقع أن كثيرا من النظريات المتأخرة جاءت على ألسنة علماء المسلمين وذكروها فى مصنفاتهم ٠

● والمسيو « ماكس مايرهوف » يقول : ان العرب والمسلمين أسدوا جليل الخدمات الى بحوث الضوء ونظرياته ٠ هذا العلم الذى يتجلى لنا فيه عظمة الابتكار الاسلامى ٠ ولولا العرب ٠ لما كان علم المثلثات على ماهو عليه الآن فى وضعه بشكل مستقل عن الفلك ٠

وان نظرة سريعة شاملة الى اعلام العرب والمسلمين الذين عملوا فى بوتقة الحضارة يكشف لنا مدى الدور الذى قامت به الحضارة الاسلامية العربية للانسانية ٠

ان الدعوى الضالة المضللة التى تسلب العرب حقوقهم الثابتة فى بعث النهضة العلمية ٠ قد وجدت أخيرا من يذهب من أهل الغرب أنفسهم لانكارها والدفاع عنهم ٠ واظهار الحقائق التاريخية مجردة من الشهوات وهم كثيرون ٠

ولما سيطر العرب على كريت شرقا ٠ وصقلية ومالطة وقوصرة فى الوسط ٠ وجزر البليار ٠ ميورقة ومنيورقة

غربا • ثم على جزيرتى سردينية • وقبرص • فتم للعرب السيطرة التامة على البحر المتوسط •

فاخرجت صقلية جملة من العلماء والمحدثين والفقهاء والأدباء والأطباء والفلاسفة • وكان فى طليعتهم « أسد بن الفرات » • وهو من أصحاب « مالك » • « وأسد بن الحرث » صاحب الاسديات فى الفقه • « والقاضى ميمون بن عمرو ابن حمديس الصقلى الشاعر المبدع » •

ومن رجال صقلية « أبو عرب الصـــقلى » • « وابن بشرون » « وابن الفحام » • « والشريف الأدريسى » •• « وابن ظفر » • « وابن القطاع » صاحب الدرة الخطيرة « والحسن بن يحيى » المعروف « بابن الخزاز » وهو صاحب تاريخ صقلية • « وابن سابق » « و عيسى بن عبد المنعم » • وهو من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة • « وابو عبد الله الصقلى » الفيلسوف • « وعبد العزيز الأغلبى » الكاتب • « والمازرى » صاحب التآليف المشهورة • وغيرهم كثير •

● ولقد أشاد « دييل » بالحكم العربى فى صقلية فقال :

ان العرب حملوا معهم الى جزيزة صقلية مظاهر فنهم وقناطرهم العالية الجميلة • وفســـيفساءهم المعمولة من الرخام الملون وصورهم الجميلة • وبهيج صناعاتهم وليدة علمهم • وكلها أعمال خاصة بالترفهين وارباب النعيم ••

وكانت المصانع العربية مثلا يحاكيه النورمان فيمابعد . ولما سقطت بلرم في أيدى العرب سنة ٨٣١ م . لم يكن فيها سوى ثلاث آلاف نسمة فلما غدت امراء العرب المسلمين برزت حضارتها وفنونها فاصبح لها حكومة ذات مجد . ورقى .

● وتحدث « آمارى » فقال(١) : ان من غلبوا على أمرهم من سكان الجزيرة كانوا فى راحة وسرور على عهد الأمراء العرب المسلمين . وكانت حالتهم أحسن بكثير من حالة اخوانهم الايطاليين الذين كانوا يرزحون تحت نير النورجامانيين والفرنجة .

وقد قال الأستاذ « سخاو » بعد أن أطلع على مؤلفات وبحوث « البيرونى » : ان « البيرونى » أعظم عقلية عرفها التاريخ .

● وقد قال الدكتور « روبنستون » عن « ابن سينا » . الذى ترجم كتابه القانون فى الطب . فى خمس عشرة طبعة فى اللاتينية والعبرية والانجليزية وقد بحث فى اقسـامه العقاقير والأدوية فى سبعمائة وستين فرعا . قال : انه يحوى مايزيد على مليون كلمة وظلت مباحثه أساسا للطب فى جامعة فرنسا وايطاليا ستة قرون .

● وعن « أبو القاسم الزهراوى » القرطبى . الذى عرف أكثر من مائتى آلة ومبضـع . وكان عالما فى طب

---

(١) كرد على ـ الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ـ ص ٢٨٠

الاسنان وأول من كتب احصـــائية صـحيحة لامراض النزيف الدموى قال :

● « هاللر » العالم الطبيعى الكبير : ان كتب « أبو القاسم » كانت المصدر الهام الذى استقى منه جميع من ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر ٠

● وكتب الدكتور « جوناس » فى المجلة الطبية أرميتديي عن « أبو القاسم » صـــاحب كتاب ـ التصـــريف لمن عجز عن التأليف ٠ المؤلف من واحد وعشرين جزءا فى الطب والجراحة ٠٠ وكانت ترجمته مرجع الاطباء ٠ وهو أحد الكتب السبعة التى قام عليها العلاج والصيدلة فى أوروبا بقوله : لا اخال القارىء يلومنى ان أنا كرســـت زاويتى هذه المرة لجراح عربى ٠

● والى « الرازى » اســـتكشاف زيت الزاج وكتابه الحاوى فى هذا ترجم الى اللاتينية ٠ وظل مرجعا لهم الى منتصف القرن الربع عشر ٠

● وقال عنه الدكتور « وينسون » : انه كان يعالج الأمراض التناســـلية كما نعالجها نحن فى ايامنا هذه ٠ واليه ينسب اختراع الفتيلة فى الجراحة ٠

وقد وضعه علماء أوروبا فى القرون الوسطى فى مرتبة « جاليليو » ٠ « وبويل » ٠ اذ كان أول من نبه لأهمية التجربة والمشاهدة للحصول على الحقائق العلمية ٠

ـ كما يعتبر كتابه الحاوى من أوسع دوائر المعارف فى الطب والجراحة . ويفوق فى الحجم قانون ابن سينا . ويشتمل على جميع ما يحتاج اليه طالب الطب . من مداواة الأمراض والعلل . ولقد طبعت مقالته عن الجدرى والحصبة اربعين طبعة باللغة الانجليزية وحدها فيما بين سنتى ٤٩٨ ـ ١٨٦٦ م . وهذه المقالة استنار بها جميع الأطباء فى العالم .

● ويقول الأستاذ « نوبرجز » كتاب القانون كأنه وحى معصوم .

● وقول الأستاذ « كمستون » : لعل « ابن سينا » لم يظهر قبله ولا بعده نظير .

● ويقول الأستاذ « سيديو » : ظلت كتب « ابن سينا » فى الطب المرجع العالمى عدة قرون واستخدمت أساسا للتعليم فى جامعات فرنسا وايطاليا جميعا . وكان يعاد طبعها حتى أواخر القرن الثامن عشر .

● ويقول الأستاذ « جوستاف لوبون : انه يتضح لنا من لائحة جامعة لوفان البلجيكية سنة ١٦١٧ م . انها اتخذت من كتب « الرازى » . و « ابن سينا » أساسا للدراسة .

● ويقول الاستاذ « بريتلو » صـــاحب كتاب تاريخ الكيمياء عن « جابر بن حيان » . الذى نبغ فى الكيمياء والصيدلة وقد ترجم الجانب الأكبر من مؤلفاته الى اللاتينية والأوروبية :

أن اســـمه ينزل من تاريخ الـــكيمياء منزلة اســـم « ارسطوطاليس » من تاريخ المنطق · فهو فى نظره أول من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقترن باسمه فى تاريخ الدنيا ·

● ولقد أدلى السير « هيولينســـتن » رئيس الاتحاد الدولى للصيدلة فى المؤتمر الصيدلى العربى الثامن الذى اقيم فى القاهرة عام ١٩٦٢ م · بفضل العرب بقوله : ان العرب كانوا أول من نشر علم تحضير الأدوية ومركباتها وأول من استحضروا الماء والزيوت بالتقطير · والتصعيد بواسطة الأدوات التى اكتشفوها كالانبيق وهم أول من كتبوا تذكرة الطبيب ـ الروشاته ـ فكانت تسمى الدستور فى الشام ومصر · والنسخة فى بلاد المغرب والصفة فى العراق ·

● والدكتورة « شوارتزهبت » وزيرة صحة جمهورية المانيا الاتحادية · أدلت بمثل هذا التصريح فى افتتاح المؤتمر الدولى للبلهارسيا بالقاهرة · فقالت : ان الغرب لن ينسى أبدا انه مدين للعرب بدراسة الطب · وان مؤلفات « ابن سينا » · « والعباسى » · و « الرازى » · كانت هى الكتب الوحيدة التى تدرس فى جامعة بالرمو التى كانت تضم أشهر مدرســـة للطب فى العالم الغربى · وكانت هذه الكتب قد ترجمت الى اللغة اللاتينية ·

● وكانت حضارة العلم الاسلامى فى أسبانيا لا مجرد زخرف · بل كان علما يطبق على كل الفنون والصناعات

الضرورية للحياة العملية · وعلى الجملة كما يقول الأستاذ « راندال » :

كان العرب فى القرون الوسطى يمثلون الطراز الفكرى والحياة العلمية الصناعية التى تضفى مثلها الآن على المانيا الحديثة ·

● وفى الموســوعة البريطــانية : ان مهارة العرب الكيماوية قد مكنتهم من تحضير أدوية كيماوية جديدة ·· وانهم أول من دون كتبا من العقاقير الطبية · وأول من أسس الصيدليات ·

● ويقول الاستاذ « ميرهوف » : ان علم الصــيدلة العربى استمر فى أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر ·

● ويقول الأستاذ « ويل دورانت » : ان العرب ابتكروا علم الكيمياء الحديث · أو ان الكيمياء تعتبر فى صورتها العلمية ابتكارا حققه العرب ·

● قال السير « باديللى » رئيس قسم الكيمياء بجامعة نيوكاسل · عن أحد علمائنا فى العصــر الحديث · هو الدكتور « فتحى عبد الوهاب » · الذى حصل على الدكتوراه فى العلوم فى كيمياء الاحيــاء · أو ما يســمونه بالكيمياء الحيوية مع اكرم تقدير من ثلاثة من اكبر علماء الكيمياء الحيوية فى جامعة اكسفورد : لقد تم على يد هذا العالم انجازات علمية رائعة فى تقدير الاحماض الذهنية غير المشعة باستخدام النظائر المشعة · واستكشاف انتقال الكهارب

فى جلد الضفادع ٠ وتقدير هرمون النمو ٠ ومعرفة طريقة استفادة الجسم بالأدوية المختلفة ٠٠

● أما الدكتور البروفسور « ديكنز » رئيس أقسام الكيمياء الحيوية بجامعة لندن ٠ يقول : كما يتضح فى بحوثه موهبة فذة ٠ فى قيادة طلاب البحث ٠ الوصول الى النتائج المرضية ٠

● ولقد اكتشف شاب مصرى نابه ٠ هو الدكتور « محيى الدين التطاوى » المخطوطة النادرة « لابن النفيس » وقد عثر عليها فى مكتبة برلين اثناء هربه من السجن لكفاحه ضمن الثورة المصرية ضد الاستعمار وهى عن الدورة الدموية ٠ والدم والقلب والرئتين ٠ وقدم رسالته عنها الى جامعة فرايبورج ٠ وظلت هذه الرسالة فى مكانها لا يدرى بها أحد الى أن عثر عليها بعض المستشرقين ٠ وحاول بعضهم أن ينسب هذا الاكتشاف الى نفسه ٠٠ وقد أشار الدكتور « بول غليونجى » فى محاضرته القيمة عن « ابن النفيس » سنة ١٩٥٩ م فى الدورة الثالثة للاتحاد العلمى المصرى الى أهمية اكتشاف الدكتور « التطاوى » (٤٢٨ هـ ١٠٣٧ م) ٠ كما ذكرت :

● المستشرقة الالمانية « سيجريد هولكة » فى كتابها شمس الله على الغرب ٠ فضل الدكتور « التطاوى » على الطب العربى ٠ و « لعبد اللطيف البغدادى » اخطاء « جالينوس » اليونانى عن الهيكل العظمى ٠

● وقد ترجم « فيتالو » كتاب « ابن الهيثم » فى البصريات الى اللغة اللاتينية سنة ١٢٧٠ م · ثم نشره « رستر » خلال عام ١٥٧٢ م · وتشير الموسوعة البريطانية الى أن هذا الكتاب ذائع الصيت فى القرون الوسطى ·

● وعثر العالم الفرنسى «سبيديو» على مؤلفات له مخطوطة بالمكتبة الأهلية · بباريس عام ١٨٣٤ م · تعالج بعض الموضوعات الهندسية وله مخطوطات أخرى فى مكتبة « بودلى » بجامعة اكسفورد · وبمكتبة ليدن ·

● وان للعالم الرحالة « أبو الحسن المسعودى » الجغرافى · كتاب مروج الذهب · ومعادن الجوهر وهو موسوعة جغرافية تاريخية · حتى أنه فى آخر سنة عاشها ألف كتابه التنبيه والاشراف · الذى لخص فيه أعماله العلمية · وضمنه تجارب حياته · الأمر الذى اكسبه شهرة عند العلماء المحدثين ·

● وقال « مارتون » فى كتابه مقدمة فى تاريخ العلم : وآخر أفق الحيوان متصل بأول أفق الانسان فلم يبق بينه وبين فكرة الانسان الأسمى التى قال بها « نيتشه » الا خطوة واحدة · لعل روح العصر الذى عاش فيه كانت السبب الجوهرى فى ألا يخطوها ·

● ولقد شغل العلماء الأوروبيون · « بالمسعودى » أكثر من غيره · وترجم المستشرق « دى غويه » كتاب

التنبيه عام ١٨٩٤ م · ولخصه · ونشره « سلفستر دى ساسى » · وكتب عنه « مياد » المؤرخ · و « فردريك » ديتريص» المستشرق الالمانى · و «بروكلمان» · «وديدمان» و « ك · فيلد » الانجليزى · و « براون » فى كتاب الطب عند العرب · و « كاراديفو » فى كتابه مفكرو الاسلام ·

● ولقد وصف « ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة العالم العربى « أبو ريحان البيرونى » « البيرون » مثال للعالم المسلم فى أرقى مراتبه · كان فيلسوفا مؤرخا جغرافيا لغويا · رياضيا فلكيا · شاعرا وعالما طبيعيا وألف كتبا وابحاثا فى جميع هذه العلوم · ومنزلته فى الثقافة العربية منزلة « لينبتز » · أو « ليوناردو » من ثقافة أوروبا الحديثة ·

● وان المسلمين هم أول من استعمل الورق · للاغراض الأدبية مصداق ذلك أن الموسوعة البريطانية ترجح أن يكون كتاب غريب الحديث اقدم المؤلفات المكتوبة على ورق · والتى لاتزال موجودة حتى الآن وهو محفوظ بمكتبة جامعة لندن ·

● وفى مجال الزراعة : فقد ذكر مؤلفو الغرب : ان العرب هم الذين نقلوا القطن الى الاندلس وصقلية فاقتبس الأوروبيون زراعته منهم · وهم الذين أخذوا عن الصينيين زراعة قصب السكر · واستخراج السكر منه · وادخلوهما الى مصر وصقلية والاندلس وتناولهما الأوروبيون منهم ·

ومثل ذلك يقال فى اليازنج والليمون الحلو · والحامض · والمشمش والبطيخ · وعدد كبير من العقاقير الطبية ·

● واشـــتهر كتاب ألفه العرب · كتاب ـ الفـــلاحة الاندلسية · « لابن العوام الاشبيلى » · وقد نقل هذا الكتاب فى القرن الماضى الى الاسبانية والفرنسية · وقد قال عن قيمة كتابه « انطوان ياسيى » فى تقرير له قدمه سنة ١٨٥٩م الى الجمعية الزراعية القديمة التى تمـــارس فى الاندلس فحسب بل له قيمة ثانية هى الكشف عن ملاحظات المسلمين فى الطبيعة والكيمياء · وبالاختصار · ان هذه الموسـوعة الزراعية التى تفرد بها القرن الثانى عشر الميلادى موسوعة تامة ·

● يقول الأستاذ « جون درابر » : انهم أول من نظم ممارستها بقوانين وانهم لم يقتصروا على العناية بالمزروعات بادخالهم الى اسبانيا أنواعا شتى من النباتات وانما اعتنوا عناية فائقة بتربية القطعان · وخاصة الاغنام والخيل ·· وان أوروبا تدين لهم بادخال المنتجات الكبرى وتقريبا جميع أنواع الفواكه الممتازة بالاضافة الى المزروعات الأصغر شأنا مثل السبانخ والكرات ·

● ويقول الأستاذ « جوستاف لوبون » : انه لا يوجد فى أسبانيا المعاصرة اليوم غير ما أتمه العرب فيها من وسائل الرى · وانهم زرعوا فى سهول الاندلس الخصبة ما ادخلوا من مزروعات مثل قصب الســـكر · والتوت · والأرز ·

والقطن ٠٠ الخ ٠٠ وان أسبانيا أصـــبحت تحت نظـام زراعتهم العلمى حديقة غناء فسيحة ٠ ويقول :

انهم شقوا فى صقلية ترعا للرى ماتزال باقية حتى اليوم وادخلوا على الأخص استعمال القنوات المائية التى كانت مجهولة قبلهم ٠

● كما يقول « ديورانت » : ان كتاب الفلاحة ٠ « لابن العوام الأشبيلى » ٠ كان أكمل بحث فى علم الزراعة ألف فى القرون الوسطى برمتها ٠

● وقال « ديلامير » فى تاريخ علم الهيئة ٠ اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك ان تعد فى العرب عددا كبير غير محصـــور ٠ وأما فى الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحد عند اليونانيين ٠ ولكنك تعد عن المجربين مئتين عند العرب ٠ ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم ٠ وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضـــة من الآلات المنطقية يســتعملونها فى الاستدلال على القضايا النظرية وهى من أصدق الأدلة فى الايصال الى المجهولات كما هو معروف ٠ والعرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على اقسام الزمن ٠٠ وهم أول من اتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض ٠٠ وقد اكتشفوا قوانين لثقل الأجســام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها جداول فى غاية الدقة والصحة كما وضعوا جداول للارصـــاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة

يطلع عليها الناظرون فى سمرقند وبغداد وقرطبة · حتى لقد وصلوا بتلك القوانين الى ما يقرب من اكتشاف الجاذبية ·

● وفى مجال الفنون · يقول الأستاذ « مارتن برجز » : ان النقش القليل البروز والتوريق الأراسك الذى أطلق على النماذج المألوفة لهذا النقش الذى استعمل فى انجلترا ابتداء من عصر الملكة « اليزابث » · وبعد ذلك يدل على ان الأوروبيين انما يدينون فى هذا الميدان بشىء لعرب القرون الوسطى · كما قلد الغربيون الكتابة الكوفية · وغير ذلك مما لايتسع المجال لحصره غير ماعرفت أوروبا عن طريق العرب المرايا الزجاجية ذات الغشاء المعدنى · وعرفوا أيضا طريقة تجليد وتذهيب الكتب التى لاتزال تستعمل حتى الآن وادخل المسلمون أيضا السجاد الى أوروبا · فكانوا مؤسسى صناعة السجاد فى أوبنسون بجنوبى فرنسا تلك الصناعة التى اشتهرت من بعدهم فى جميع انحاء العالم ·

● ولقد سجل المسلمون ما شاهدوه فى الشعوب والجماعات من صفات فى معاشها · وأعيادها ومواسمها ومباهجها وعاداتها وملابسها · وكانوا أول من كتب فى علم الاجتماع ·

● ويعتبر « عبد الرحمن بن خلدون » أب علم الاجتماع بفضل ما كتبه فى هذا الباب :

● يقول الأستاذ « ارنولد توينبى » : ان « ابن خلدون »

وضع فى مقدمة تاريخ فلسفة التاريخ . لا شك فى أنها أعظم عمل من نوعه ابتكره عقل فى أى زمان أو مكان .

● ويقول الأستاذ « فليت » : ان الأدب العربى قد توج فى علم التاريخ . أو بالحرى فلسفة باسمه هو ألمع الاسماء فلا العالم القديم . ولا عالم النصرانية فى القرون الوسطى يمكن أن تتيه بما يقرب من الغيبة .

ثم يقول : ان «افلاطون» . و «أرسطو» . «وأوغسطين» .. ليسوا من أنداد « ابن خلدون » . أما الآخرون فلا يستحقون أن نذكر اسماءهم الى جانب اسمه .

● ويقول الاستاذ « جورج ســـارتون » : ان « ابن خلدون » يعتبر رائدا . « لاوروالد شبلنجر » (١٨٨٠ ـ ١٩٢٦م) . واته سمى « بابى أو احد آباء فلسفة التاريخ كما لقب بابى علم الاجتماع .. وكان الغربيون يزعمون ان اول كتاب يستحق التسمية باسم فلسفة هو الكتاب المسمى بـ العلم الجديد ـ لمؤلفه الايطالى « فيكو » . ولكنهم عرفوا بعد ذلك . ان مقدمة « ابن خلدون » أولى بهذا الاسم من كتاب العلم الجديد لأنها كتبت قبله بمدة تناهز ثلاثة قرون ونصف قرن فضلا عن انها تنم عن نظريات أدق وأعمق من نظريات « فيكو » وتدل على عقل أقرب الى العقل العلمى الحديث .

وكانوا يزعمون ان شرف انشاء علم الاجتماع يعود

الى العالم الفرنسى « أوجست كونت » · ولكنهم عندما اطلعوا على ترجمة المقدمة « لابن خلدون » أدركوا انه أولى بلقب مؤسس علم الاجتماع من كونت · لأنه كان قد سبقه فى هذا المضمار بمدة لا تقل عن أربعة قرون ونصف قرن ذلك فضلا عن أن نظرته فى الحياة الاجتماعية ونواميسها · كانت أكثر تمشـــيا مع التفكير العلمى الحـــديث فى عدة ميادين ·

● ولقد قال « غومبلوفيتش » الذى يعد من آباء علم الاجتماع فى المانيا : ان « ابن خلدون » يمكن أن يعد مفكرا عصريا بكل معنى الكلمة من وجوه عدة : انه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين · وأبدى آراء عميقة جدا قبل « فيكو » لا قبل « كونت » وحسب · وفى الحقيقة : ان ما كتبه « ابن خلدون » هو ما نســـــميه نحن اليوم علم الاجتماع ·

● وقال « استفانو كولوزيو الايطالى » : ليس لأحد ان ينكر ان « ابن خلدون » كشف عن حقائق كثيرة فى علم الاجتماع انه سبق « مكيافيللى » و «فيكو» · و «مونتسكيو» الى وضع علم جديد هو النقد التاريخى · ان مبدأ الحتمية الاجتماعية مما يعود الفخر فى تقريره الى « ابن خلدون » قبل رجال الفلسفة الاثباتية · وعلماء النفس يقررون : بان المؤرخ العربى العظيم كشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصـــادية السياسى قبل كثير من علماء الاقتصـــاد المعروفين فى العالم · واذا كانت نظريات « ابن خلدون » فى

حياة المجتمع تضعه فى طليعة فلاسـفة التاريخ · فان ما يعزونه من شأن كبير الى دور العمل والأجر والملكية تجعله اماما لاقتصاديى هذا العصر ·

وقال « روبرت فيلينت » الانجليزى : من جهة علم الاجتماع أو فلسفة التاريخ يتجلى الأدب العربى باسم من ألمع الاسماء هو اسم « ابن خلدون » · حتى يقول :

واننا اذا نظرنا الى « ابن خلدون » مؤرخا فقط · وجدنا من يفوقه من كتاب العرب أنفسهم · وأما اذا نظرنا اليه واضع نظريات فى التاريخ فانه منقطع النظير فى كل زمان ومكان حتى ظهور « فيكو » بعده بأكثر من ثلاثمائة عام · وليس « افلاطون » ولا « أرسطو » ولا القديس « أوغسطين » بانداد له · أما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه · ان أول كاتب بحث فى التاريخ كموضـوع علم خاص هو « ابن خلدون » ·

● وقال « ارنولد توينبى » وهو من أشهر المؤرخين المعاصرين فى بريطانيا : ان « ابن خلدون » فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ فلسفة للتاريخ وهو بلا شك أعظم عمل من نوعه خلفه أى عقل فى أى زمان ومكان ·

● وقال « ناتانيل شميت » وهو من أساتذة جامعة كوربيل فى أمريكا : ان « ابن خلدون » كشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته انه فيلسوف مثل « أوجست كونت » ،

و « توماس مايكل » • و « هربرت سبنسر » • وهو قد تقدم فى علم الاجتماع الى حدود لم يصل اليها « كونت » نفسه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر • والمفكرون الذين وضعوا أسس علم الاجتماع من جديد • لو كانوا قد اطلعوا على مقدمة « ابن خلدون » فى حينها • واستعانوا بالحقائق التى كان قد كشفها والطرائق التى أوجدها. ذلك العبقرى قبلهم بمدة طويلة لاستطاعوا أن يتقدموا بهذا العلم الجديد بسرعة أعظم مما تقدموا به فعلا •

وقد درس المستشرقون مذهبه وترجموا مقدمة كتابه الى أكثر اللغات الأوربية كما ترجموا تاريخه وسيرته • وقد قرر الأستاذ « فلنت » فى كتابه تاريخ فلسفة التاريخ الصادر عام ١٨٩٣ م • ان أكثر مذاهب التاريخ الحديثة قد تأثرت بمذهب « ابن خلدون » •

● كما قرر « توينبى » فى كتابه دراسة فى التاريخ ـ الجزء الثالث : ان « ابن خلدون » ينسج وحده فى تاريخ الفكر لا يدانيه مفكر من الذين سبقوه والذين ظهروا بعده •

● أما عن الأدب العربى • يقول « لوبون » : ولقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية • اما قصة الأدب العربى الشعبى ورواد البحث فيه يحتاج الى مجلدات ضـــخمة وعديدة لســرد تفاصيلها وتاريخها الحافل المملوء بالمواد الغزيرة والنادرة

والمتشعبة • حتى لقد سبقنا الى العناية بتراثنا الشعبى والاهتمام به المستشرقون خاصة الفرنسيين والألمان منهم • فاهتموا ببحث هذا التراث فى معارضه القصصية والنثرية والشعرية •

وفى خلال القرن التاسع عشر تعاقبت دراساتهم وأبحاثهم عن الف ليلة وليلة • وعن قصص « بنى هلال » و « سليم » • وعن العادات والتقاليد الشائعة فى البيئات العربية الاسلامية وعن الحواديت والأغانى الزائفة بين الجماهير الشعبية • وعندى ان هذه العناية من أولئك المستشرقين لم تكن لوجه العلم وحده • وانما كانت كذلك تجاوبا مع الاتجاه الاستعمارى الأوروبى لاستغلال شعوب الشرق العربى • والاستيلاء على ما فيه من مقومات وطاقات •

● والأستاذ « جوستاف لوبون » يقول : لم يكن تأثير آداب العرب فى الصليبيين صفرا • فقد استوحاها كثير من شعراء العرب وكتابهم • فكان سحرة مصر وعجائب الشرق • وغود فراوتانكريد وغيرهما موضوع قصص الشعراء المتجولين الذين كانوا ينشدونه بين قصر وقصر •

وهو يشير على قول الأستاذ « جوستاف جرينباوم » : ان أول شاعر اكويتانى هو الكونت « جيوم دى بواتييه » الذى دخل الى الشرق فى غزوة صليبية ١١٠١ ــ ١١٠٢ م قد تأثر شعره من تلك السفرة • ذلك انه بعد عودته من

البلاد المقدسة . أصبح ايقاع أغانيه وهيكلها العام يذكران بالموشح الاندلسى .

● ويفسر السير « جيب » سبب تهالك الأوروبيين على هذا الأدب : بان الحضارة الأوروبية فى القرون الوسطى كانت قد برمت بالنظم الاكليروسية الضيقة ولم يستطع الأوروبيون ان يشبعوا رغباتهم فى الأدب اللاتينى المجدود فاضطروا الى الالتجاء للعالم الاسلامى الذى كان مشهورا حتى الآن عندهم بالتفوق الحربى فحسب . ففوجئوا بان المسلمين كانوا يبزونهم فى ميدان الفكر أيضا . وبذلك تأصلت جذور الآداب العربية فى أوروبا الحديثة . وشاركت فى الطفرة التى عمت فيها فى عصر النهضة(١) .

● ويقول الدكتور « جولاجر مانوس » المستشرق الهنغارى(٢) عن « ابن الرومى » : انه شاعر من أصل اغريقي عاش فى بغداد خلال القرن التاسع الميلادى . وقد عانى كثيرا من التجاهل . واغماط الحق مما لا يستأهله رجل عظيم مثله فحتى فى الشرق العربى لم تنشر من مؤلفاته الا مقتطفات فحسب . ولقد ذهب ضحية آرائه وكتاباته الأدبية فدس له اعداؤه السم وقضوا على حياته .

● ويقول المستشرق : « درابر » الامريكى فى كتابه المنازعة بين العلم والدين :

---

(١) مجلة الرسالة العدد ١٠٢ .

(٢) من مجلة الشبان المسلمين العدد ـ ٢ ـ .

لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا من الأسلوب الذى ترخوه فى مباحثهم • ثم قال : هذا الأسلوب هو الذى أوجب لهم الترقى الباهر فى الهندسة وحساب المثلثات واكتشاف علم الجبر • ودعاهم لاستعمال الأرقام الهندية • وهكذا فان الحضارة الاسلامية لا تدانيها حضارة • وقد سجل التاريخ آياتها باعزاز كما شهد بها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه •

● وقالت الدكتورة « سيجريد هونكة » فى كتابها شمس الله على الغرب : ان أوروبا تدين للعرب • وللحضارة العربية • وان الدين الذى فى عنق أوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا • وان هذه الطفرة العلمية التى نهض بها ابناء الصحراء من العدم من أعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ العقل البشرى •

● وقال الأستاذ « كارتيسكى » : ان الخدمات التى اداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الأبحاث الحديثة قد دلت على عظيم ديننا لعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوروبا فى ظلمات القرون الوسطى •

● وحسبنا ايضا ان نقرأ فقرات من كتاب حضارة العرب للعلامة الفرنسى « جوستاف لوبون » : والذى يقول فيه ما يملأ أنفسنا اعجابا واكبارا لاجدادنا السباقين الذين نشروا فى الخافقين ضياء العلم • فاحالوا ظلام الجهل الذى

كان مخيما على العالم بأسره · نورا ساطعا وطاردوه حتى استسلم مدحورا · ومما قاله :

ان العرب فتحوا فارس : والشـــام فصـــادفوا بهما خـــزائن العلوم اليونانية فبادروا بترجمة ما كان منهـــا بالسريانية الى العربية · ثم نقلوا بعد ذلك الى لغتهم مابقى من غير ترجمة · وظلت العلوم والمعارف تسير قدما · ولم يكتنفوا بذلك بل تعلم فريق منهم اللغة اليونانية لينهلوا من المنـــابع العلمية الأصـــيلة اذ ذاك كما تعلموا اللاتينية والقشتالية حين دخلوا بلاد الأسبان ونشروا بها علومهم ·

● وهنا قول المستشرق « هير شفيلد » : وليس للقرآن مثيل فى قوة اقناعه وبلاغته · وتركيبه واليه يرجع الفضل فى ازدهار العلوم بكافة نواحيها ·· ثم قال : ان الدين الاسلامى مخالف لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة لأن فيه قوة · وصلابة ومتانة · تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة ·

● والدكتورة « سيجريد هونكة » الألمانية تقول :

يبدو ان الأوان حان بالنسبة للغرب كى يتحدث بكل صدق واخلاص عن العرب · هذا الشعب الذى أثر بكل عمق فى مجرى الأحداث العالمية والذى يدين له الغرب والانسانية جمعاء بالشىء الكثير ·

● واثبت « اماری » المستشرق الصقلی(١) : ان صقلية مدينة للعرب بحضارتها · كما ان ايطاليا مدينة لصقلية باقتباس معالم الحضارة الغربية وقد أدى هذا الى ابتكار الشعر الوطنى · بمعنى انه منذ قلد البلاط الصقلى الاسلامى ·· بدأت العناية بقرض الشعر تلك العناية التى كانت السبب فى نهوض الشعر الايطالى ·

● وقال « رينالدى » : لم يساعد العرب فقط على انهاض الشعر الصقلى والايطالى · بل أمدوا قصصنا بشكلها ومادتها ·

ويتصدى العلامة الأسبانى « مننِد ذبيدال » · لبيان تأثير الزجل العربى على الشعر البروفنسى فيقول : ان أول شاعر بروفنسى شعبى نعلمه هو « جيلرمو » التاسع دون أوكتافيا · هكذا بل أول شاعر نعرفه فى لغات الغرب جميعا · وله خمس قطع الفت فى الغالب بعد عام ١١٠٢ وتجرى على نحو الزجل الاندلسى · وفعل مثله الشاعر « سركمون » · و « مركبرو » فى النصف الأول من القرن الثانى عشر ·

● وقال « سيديو » : كان خيال الشعراء يتجلى فى الروايات والأقاصيص فالحق ان اتباع « محمد » كانوا أكبر المحدثين على الدوام · فكانوا يجتمعون مساء تحت

---

(١) فى كتاب قرطبه صفحة ١١١ ·

خيامهم ليسمعوا بعض الأقاصيص العجيبة التى تتخللها الموسيقى والغناء ٠

● ويقول « لوبون » : ولقد كان اثر حضارة المسلمين فى الغرب قويا فى النواحى العلمية والأدبية والخلقية ٠ اما قصة الأدب العربى الشعبى ورواد البحث فتحتاج الى مجلدات ضخمة وعديدة كسرد تفاصيلها وتاريخها الحافل المملوء بالمواد الغزيرة ٠ والنادرة والمتشعبة حتى لقد سبقنا الى العناية بتراثنا الشعبى والاهتمام به ٠ المستشرقون خاصة الفرنسيين والألمان منهم ٠ فاهتموا ببحث هذا التراث فى ميادينه القصصية والنثرية والشعرية ٠

● وقد اعترف الكاتب الفرنسى المعاصر « اناتول فرانس » بفضل الحرب الاسلامية التى لم تكن تبغى الا نشر الحضارة العربية أمام البربرية الافرنجية ٠

ويقصد الكاتب بذلك اليوم التاريخى المشئوم ذلك اليوم الذى استطاع فيه جيش « شارلمان » بقيادة « شارل مارتل » ان يتصدى للجيش العربى الذى انطلق بعد فتح أسبانيا نحو أوروبا وتوجه الى منطقة وسط فرنسا عند مدينة بواتييه ٠ وقد هزم الجيش العرب فى هذه الموقعة ٠ ثم تراجع الى حيث قواعده فى أسبانيا مكتفيا بفتحها ونشر الاسلام بين ربوعها دون الدول الأوروبية الأخرى ٠

ولولا هذه الواقعة فى رأى « أناتول فرانس » لقدر

للحضارة العربية الاسلامية · ان تمتد لتشمل بلدان أوروبا ولتغير بالتالى وجه التاريخ ولكن لله حكمة فى ذلك ·

● واعترف « هنرى دى شامبون » مدير ديفويارلمنتر الفرنسية بالآثار التى عادت على أوروبا نتيجة لتوقف المد الاسلامى فى أوروبا بعد معركة بواتييه عام ٧٣٢ م فى قوله : لولا انتصار جيش « شـــارل مارتل » الهمجى على تقدم المسلمين فى فرنسا لما وقفت فى ظلمات القرون الوسطى ولما اصيبت بفظائعها · ولا كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الدينى والمذهبى · ولولا ذلك الانتصار البربرى على المسلمين لنجت أسبانيا من وصمة محاكم التفتيش · ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون · ونحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا فى العلم والفن والصناعة مع اننا نزعم اليوم ان لنا حق السيطرة على جميع الشعوب العريقة فى الفضائل · وحسبها انها كانت مثال الهمجية وانه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف وانهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى ·

● ومثل هذا ما ردده «كلور فارير » حين اعترف بانه قد اناخت على الانسانية بعد السبعمائة للميلاد كارثة لعلها أسوأ ما شهدته القرون الوسطى تحبط من جرائها العالم الغربى ســـبعة قرون أو ثمانية فى الهمجية قبل ان تظهـر النهضة · وهذه الكارثة هى ذلك النصـــر الهائل الذى أحرزته فى بدايته جماعات الهركاس المتوحشـــين يقودها

« شارل مارتل » على فرق العرب والبربر · فى مثل هذا اليوم المشئوم تقهقرت الحضارة ثمانمائة سنة وحسب المرء ان يذكر ما كان يمكن أن تصل اليه فرنسا لو ان الاسلام النشيط الحكيم الحاذق الرصين المتسامح · اذ الاسلام هو كل هذا استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فظائع لا نجد لها مثيلا

● ويقول « جوستاف لوبون » فى كتابه حضارة العرب : كلما تعمق المرء فى دراسته المدنية العربية تجلت له أمور جديدة · واتسعت أمامه الآفاق · وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب · وانهم الذين مدنوا أوروبا فى المادة والعقل والخلق · ومتى درس المرء ما عمل العرب وما كشفوه فى العلم يثبت له أنه ما من أمة انتجت مثل ما انتجوه فى هذه المدة القصيرة التى كتب لملكهم قضاؤها · واذا نظر المرء فى صنائعهم ونقوشهم لا يسعه الا الاعتراف بانه كانت لهم مسيرة خاصة لم تبلغها أمة ·

مما سبق تبين أن الاسلام دين حضارة · لم تقم لغيره حضارة خاصة به · وقد اضفى على كل البلاد التى شملها لونا مشتركا من الفكر الدينى والعلاقات الانسانية والاجتماعية · كما أن المسلمين أخذوا من الحضارات السابقة · وتفاعلت حضارة الاسلام مع الحضارات العالمية الأخرى · وهذا هو ناموس الحياة فكانت حضارة متكاملة ·· وستبقى من أجل الانسانية مدى الحياة ·

● وهذا استاذ آخر هو « كويلر يونج » أستاذ مادة العلاقات الأجنبية فى جامعة برنستون · ورئيس قسم اللغات الشرقية فيها · يقول بعد أن ذكر بعض مآثر الاسلام على حضارة الغرب : من كل ماسبق نقصد التذكير بهذا الدين البالغ الثقافى والعلمى الكبير الذى ندين به للاسلام منذ ان كنا نحن المسيحيين فى خلال أكثر من ألف سنة نسافر الى العواصم الاسلامية · والى الأساتذة المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم والفلسفة · وفى جملة ذلك التراث الأوروبى الكلاسيكى الذى قام به الاسلام وصانه بكل امانة واخلاص حتى استطاعت أوروبا مرة أخرى أن تتفهمه وترعاه · كل هذا يجب أن يناسب الروح التى نتجه بها نحن المسيحيين وعلى الأخص رجال الكنيسة المسيحية نحو الاسلام نحمل اليه هدايانا الثقافية والروحية فلنذهب اليه اذن فى احساس بالمساواة لكى نؤدى اليه ما علينا من فروض ·

وان كل الشواهد تؤكد ان العلم الغربى مدين بوجوده الى الثقافة العربية الاسـلامية · كما ان المنهج العلمى الحديث القائم على البحث والملاحظة · والذى أخذ به علماء أوروبا · انما كان نتاج اتصال العلماء الأوروبيين بالعالم الاسلامى عن طريق دولة العرب فى الاندلس ·

ولن نتجاوز العدل ولا الحق اذا نحن وافيناه قروضه مضافا اليها الارباح · ولكننا سنكون من اتباع المسيح حقا اذا نحن تناسينا شـروط تبادل المنفعة واذا نحن أعطينا المسلمين فى حب واعتراف بالفضل والجميل ·

● وهذا واحد من المستشرقين الالمان اسمه « أرنست هرتزفلد » انصـــرف اهتمامه الى ميدان بعيد عن الأدب واللغات الشرقية . وقضى القسم الأوفر من حياته بين المسلمين . ولد سنة ١٧٨٩م . وتعلم حتى أصبح مهندسا معماريا . والتحق عام ١٩٠٣ م ببعثة تنقيب مسافرة الى آشور كان بين أعضائها « نور اندريا » الذى ألف فيما بعد أصدق وأفضل كتاب عن سيرة النبى (ص) . وكان اهتمامه بالاسلام والتاريخ الاســـلامى حافزا « لهر تزفلد » الى الاهتمام أيضا .

وقد أسلم كثير من كبار رجال الالمان أمثال : « فون ليرس » الذى أصبح « عمر أمين » . والذى يقول : اننى اليوم أعرف انه من وجهة النظر العلمية ومن جهة نظر الأديان المقارنة يعتبر الاسلام أصدق تنزيل من رب الكون . وانه مفتوح امام كل المتقين والمخلصين على الأرض دون أن يكون هناك شعب مختار وبدون جشع مادى أو كنائس ذات طموح . ولذلك سأبذل جهدى لنشر الاســـلام المنقذ الوحيد للبشرية التى تقاسى فى عصر الذرة .

● والأســـتاذ « هاملتون جب » من المســـتشرقين المعاصرين الذى صدر له كتاب دراسات فى حضارة الاسلام أخيرا وهو يعد أحد الذين يعتبرون بحق حجة فى ميادين الحضارة الاسلامية . والجميع متفقون على انه لا يصدر عن هوى . أو تعصب . ذلك لأنه فى كل ما يكتب يبحث عن الحق . ويحاول الوصول الى عالم هذا الحق .

والكتاب يبدأ باعطاء تفسير للتاريخ الاسلامى . فيذهب الى ان الاسلام فى كافة المناطق التى استقر بها قد تميز بطابع خاص به وهذا الطابع الخاص يمكن أن يظهر بسهولة نحو كل تلك المناطق . فهو قد اقام بســــرعة تكاد تعز على التصديق فى أقل من قدر امبراطورية ضخمة فى غربى آسيا .. وشواطىء البحر المتوسط الجنوبية والغربية . وهو بعد أن أقام نظاما سياسيا فى الأماكن التى دخلها سارع باقامة نظام ثقافى دينى مشترك يقوم على مفهومه العالمى الشامل . ومن هنا كان عليه ان يواجه المفهوم العالمى للمسيحية . وان يحطم فى الوقت نفسه الزرادشتية والديانات الثنوية . كما كان عليه أن يقيم ستارا فى وجه انتشار البوذية .. وقد نجح الاسلام فى هذا . كما نجح بالتدريج فى ايجاد اكبر درجة ممكنة من الوحدة الدينية والاجتماعية والثقافية فى العالم الاسلامى . وقد ساعده على هذا انه أكد المبادىء الاخلاقية التى تعتبر تراثا مشتركا بين ديانات التوحيد . وانه احترم جوهر الانسانية . فلم يفضل انسانا على انسان .. وفى الوقت نفسه لم يقهر الأخذ بين الديانات الأخرى . ولم يعرقل خطاهم .

وهو يرى ان قيام الخلافة الأموية عام ٦٦١ م كان ثمرة للتسوية التى تمت بين المطالبين بمثل اسلامى أعلى . وولاء مشترك للتراث وبين مفهوم المكيين الذى لم يخرج عن كونه مفهوما دنيوى الصبغة . ثم كان أهم ما واجه الأمويين هو عملية التنسيق بين البناء الاجتماعى لهيكل

الدولة وبين الاقتصاد الزراعى فى الولايات المفتوحة · ثم تحقيق عملية التنسـيق هذه فى اطار المبادىء الخلقية فى الاسلام · وقد نجح المتدينون بالاتحاد مع الأمويين فى اسقاط تلك المبادىء المتشددة التى نادى بها المغالون من الخوارج والشيعة ثم جاء العباسيون · بعد أن كبر حجم الأمة · ومع انهم اعتمدوا على المتدينين او بعبارة أخرى على أهل السنة ·· الا أن هؤلاء لم يقدموا حلولا يمكن أن تخدم المنـاطق الشاسعة · ومن هنا فقد اعتنق المعارضون لها مذاهب جديدة يدعو بعضها الى الفصل بين السـلطة الدينية والسياسة · أو وضع الواحدة فى وجه الأخرى اذا لزم الأمر ·

ثم كبر حجم الخـلاف حينما حاول المأمون وخلفاؤه اقرار المبادىء ذات الصبغة اليونانية · على ان الذى يذكر فى هذه الفترة ان الاسلام كان أكبر من أن يرتبط بأى نظام سياسى وافد · وان تعاليمه كانت من المرونة والحيوية بحيث اتسعت للمفاهيم الجديدة وقد سارع المثقفون باعطاء حلول جديدة للمشكلات الجديدة ·

التصـوف فى الاسـلام

● يقول الاستاذ « هاملتون جب » فى كتابه دراسات فى حضارة الاسلام • ويحلل النزعات الدينية عند المسلمين فى فصل يعتبر من أهم فصول الكتاب • اذ يقبل الى المصادر التى اســتمدوا منها فكرهم والعلاقة بين الغيب والعالم المنظور • وهو يصل الى أن تضيف مصادر الفكر الاسلامى الدينى الى الفئات الآتية :

١ ــ المواقف والمعتقدات البدائية التى ظلت حية فى الأمة الاسلامية •

٢ ــ تعاليم القرآن وأثره مشفوعين بالسنة النبوية •

٣ ــ قيام علماء الكلام ورجال الدين بتنظيم المعتقد الاسلامى والاخلاق الاسلامية على أصول منهجية •

٤ ــ بتأثير الطرق الصوفية •

وهو من اجل هذا يتعرض للاساس الروحى •

والمترجمون يختارون كلمة التسمى فى مقابل Animism لأنها تعنى المبدأ القائل بوجود الأرواح فى المظاهر الطبيعية ٠

كما يتعرض للرسول (ص) وللقرآن الكريم ٠ وللشريعة الغراء ٠ وعلم الكلام والتصوف ٠ وهو فى كل منها يأتى بزاوية جديدة ٠ أما القسم الثالث ٠ والخاص بدراسات فى الأدب العربى فان ما فيها لا يعتبر جديدا تماما على القارىء العربى ٠

والذى لاشك فيه انه ليس من المطلوب ان ينظر بها المسلم ذلك لأن للمستشرق معتقداته ومنهجه ٠ وطريقته الخاصة فى النظر للاشياء ٠ المهم أن يكون المؤلف صادقا مع منهجه العلمى ٠ ونظرته الخاصة به ٠ والمؤلف قد احتاط لنفسه ٠ وللنظرة العلمية حين قال فى التصوير الذى قدم به النسخة الانجليزية :

والتعميمات على هذا الذى قد تشوه ٠ أو تزور بعض الشىء ما فى المعلومات الواقعية من دقة وتعقيد ٠ ولذا كانت هذه المقالات عرضة للنقد الذى ينصب على مثل تلك التعليمات ولكن من الضرورى ان نؤكد للقارىء بان وراء كل تصميم مجموعة وفيرة من الدراسات المتأنية المسهبة للمصادر الأصلية ٠

● والدكتور « مارتن لينجر » أستاذ اللغة الانجليزية بالجامعة المصرية سابقا ٠ والمشرف على أكبر مكتبة فى

العـــالم . مكتبة المتحف البريطانى بلندن . والذى درس التصوف الاسلامى فاستهواه بما فيه من عمق ومعرفة ومن هدى ونور وأقبل عليه وبذوقه وقلبه . وعقله ينشده عنده الطريق واليقين .

وعلى المعراج الصوفى وصل الدكتور « لينجر » الى الله . فاجتباه سبحانه وهداه الى الاسلام ومن ثم أصبح الدكتور « لينجر » البريطانى الدكتور «أبو بكر سراج الدين» العالم الصوفى الذى يبشر بالروحانية الاسلامية فى آفاق الغرب . وربوع الشرق . داعيا البشرية كافة الى هذا الرحيق المختوم والنبع السلسبيل والنور الالهى المبين .. الذى يملك وحده انقاذ البشرية من الجاهلية المادية التى الحدت . وتمردت وأخذت تبتعد عن الله وعن هداه .

● يقول « أبو بكر سراج الدين » : والحق اننى لم أجد فى المسيحية ولا فى غيرها ما يقارن بالتصوف الاســـلامى وان هدف الزهبنة . وهدف الطريق الصوفى مختلف جدا سلوكا ومعرفة . وتذوقا . وذوقا .

● ويقول « أبو بكر سراج الدين » : لقد كتبت فى كتابى فصلا عن هذه العقيدة . مذهب وحدة الوجود ــ أردت أن اثبت فيه . ان الشيخ الأكبر « محيى الدين قدس الله » سره لم يكن هو المؤسس لهذه العقيدة كما يزعم رجال الاستشراق فهذه العقيدة توجد فى الاســـلام منذ يومه الأول . ولكن بعبارات أخرى .

وتوجد أيضا فى القرآن الكريم : « اينما تولوا فثم وجه الله » • « كل شيء هالك الا وجهه » : • « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » •

والامام « الغزالى » حجة الاسلام • يثبت هذا المذهب فى رسالته ـ مشكاة الأنوار • قبل نصوص الحكم « لمحيى الدين » بمائة عام •

وهذه العقيدة يعبر عنها بصعوبة انها ذوقية لا عقلية •

ويقول الشيخ الأكبر أيضا : كنت جالسا فى حال الذكر فاذا بهاتف يقول لى : قل هو الأول والآخر والظاهر والباطن •• فقال : ثم كرر الهاتف قوله ثلاث مرات فقال « محيى الدين » : افهم الأول • وافهم الآخر • وافهم الباطن • ولا أفهم الظاهر •• لأننى لا أرى الا الأشياء المخلوقة •• فقال الهاتف : لو كان ظاهرا غيره لقلت لك فلا ظاهر سواه •

× وفى دعاء الرسول المصطفى (ص) : أنت الظاهر ولا فوقك شيء • ومعنى فوق لابد أن يكون ليس عليك غطاء •• أى لا ظاهر سواه •

× وفى حديث الرسول (ص) : كان الله ولم يكن معه شيء • وهو الآن على ماهو عليه •

ـ فهل يوجد من ينكر هذا ؟ •• انه الآن على ما كان عليه ـ أى لا سواه ـ حتى العالم الظاهر لا يتجاسر أن

ينكز ؟ · وهل يمكن أن نزيد شيئا ؟ · وهل يمكن أن نضيف جديدا الى الله سبحانه وتعالى · ثم الاسم سبحانه وتعالى الحق تدل على ان لا حق الا الحق ·

وكما تقول : لا اله الا الله · نقول : لا حق إلا الحق فاذا لا يوجد فى الحقيقة أى شىء غير الله ·

ويقول : الطرق الصوفية ضرورة حيوية للعالم الاسلام · لأنها التطبيق العملى للتصوف · ولانها تحمل هذا المشعل القوى الذى ينير الطريق لرواده والتصوف هو الاحسان كما عرفه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام :

× ان تعبد الله كأنك تراه ـ وكلمة تعبد ـ تدل على مداومة فى العبادة · أى ان تكون عبدا قائما لله فى مقام الاحسان ·· وفى عصر النبى (ص) كانت قلوب الصحابة منيرة بنور النبى فاستغنوا عن الطرق ·

وفى أعقابهم جاء التابعون يترقرق بيئتهم بقية من هذا النور · ثم ابتدأ شىء يشبه الطرق زاوله «الحسن البصرى» كان حوله تلاميذ يرشدهم ويوجههم ·

ثم اقتضت الضرورة · أن يوجد هذا التنظيم الدقيق ليتولى الارشاد العام ·

والطرق كالمذاهب الفقهية · ولكن على مستوى أعلى

فاسلام الطرق على مستوى الاحسان · ولابد من الاثنين معا · وكان سيدنا أحمد العلوى يقول : المشايخ الصوفية هم مجتهدو الاحسان · والأئمة الأربعة هم مجتهدو الاسلام والاشعرى مجتهد الايمان ·

ويحضرنى بهذه المناسبة ان جريدة فى الجزائر كانت تتعرض دائما للطرق الصوفية · وكان العلماء يترددون عليها واذكر بيتا جميلا من قصيدة رائعة فى الرد على هذه الجريدة وهو :

يا ناطح الجبل العلى لتوهنه
أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ولاشك ان العالم الاسلامى فى عصرنا أحوج مايكون الى هذه الطرق ·· وأحب أن أقول : ان رجال الفكر كافة يقدرون التصوف الاسلامى ويحترمون الاسلام باحترامهم للتصوف ·

وقد طفت بكثير من بلاد آسيا وأفريقيا ولمست أثر التصوف والطرق فى حياة المسلمين ونشاطهم ·

ان الطرق قوة كبرى بعيدة الأثر فى حاضر المسلمين ومستقبلهم ·

وحينما كنت فى نيجيريا كنت ارى أبناء الطرق الصوفية هم الذين يعمرون المساجد والأندية · وفى كافة العواصم الأفريقية كنت أرى هذه الظاهرة ·

وفى السودان والمغرب اتصلت بالطرق الكبرى · كما اتصلت بالقادرية والتيجانية عن طريق الشيخ الفاتح قريب الله · ورأيت الآمال الكبار التى تملأ الصـــدور والقلوب وللطرق الصوفية أثرها الضـــخم فى مقاومة الاســتعمار والتبشير · ثم أثرها فى نشر الاســلام خصوصا فى الهند وجاوه والشرق الأقصى وأفريقيا ·

والتصوف عندى هو وحده القادر على انشاء جيل عربى اســـلامى · مزود بالعزمات القوية · وبالاخـلاق الفاضلة جيل يتمسك بالعروة الوثقى · وبالمثاليات العليا ·· جيل متطهر من مادية الغرب الحادة وانحلاله ·

ويؤسفنى أن أقول أن كثيرا من الشباب فى الشـــرق مايزال رغم تحرر أرضه مستعمرا للغرب فى تفكيره وعواطفه وأخلاقه ·

ويستطيع التصوف اذا تزود به الشباب ان يملأ هذا الفراغ النفسى وان يطرد من قلب الشـــباب تراث الغرب والحاده وانحلاله · بل يستطيع التصوف فوق هذا ان يمد يده المنجدة للانسانية كافة لينتشلها من هذه النكسة التى تدمر روحه وتهبط بمثله وتبعده عن الله ورسالاته ·

ان التصوف الاســلامى يمثل الحقيقة الربانية العليا التى ترفع الحجب انه الحل الوحيد لكافة المشاكل الفلسفية والمذهبية التى تحيل الانسان الى آلة تدمر نفسها وتدمر من يحيط بها ·

اننى أوروبى وقد وجدت خلاص روحى ونجـــاتها فى التصوف ويستطيع كل عربى أن يجد ما وجدت اذا وجد الدعاةوالهداة وتلك هى رسالة الصوفية فى هذا العصر .

● ومن شهادة الدكتور « مارتن » تبين لنا أخطاء رجال الاستشراق خطأ كبيرا فى دعواهم :

ان التصوف الاسلامى استمد أصوله من الثقافات غير الاسلامية .

فأســـاس التصـــوف نجده فى القرآن الكريم . وفى الأحاديث النبوية وفى منهج الرسول . وفى حياة الصحابة والقرآن حينما يدعو الى ذكر الله . والى الاستغفار وتطهير الجوارح . وبتنقية القلب ورياضة الروح .

والحجاز اليوم لا يوجد فيه اعتكاف . لأنه لا يوجد فيه اعتراف بالتصوف . ولا يوجد به أيضا أولياء لأن الولاية لا تنبت الا فى البيئة الصوفية .

والمستشرقون يتظاهرون بحب التصوف الاسلامى .. ويسردون فى الحديث عنه . ولكنهم لا يفهمون هذه العقيدة ولا يتذوقون هذا المنهج ولو فهمـوا وتذوقوا لأســـلموا وتصوفوا .

● « فماسينيون » الذى تخصص كما يقول فى دراسة « الحلاج » يتجاهل كلماته التوحيدية . ليثبت أنه لم يكن موحدا على مذهب وحدة الوجود .

وان بعض المســـتشرقين لهم أغراض وأهداف فيمـــا يكتبون عن التصوف · ولقد عرفنا عن « ماسينيون » أنه رجع الى دينه عن طريق التصوف · والمتصوف شيء كلى · و « ماسينيون » كمسيحى لا يمكن أن يفهم التصوف فهما حقيقيا · ولهذا نجد أكثر المستشرقين يميلون الى شيء من انكار التصوف وهم لا يشعرون ·

● وهذا « نيكلسون » يقول : انه يحب التصوف ·· وهو ينشر رسائل « ابن تيمية » ويعجب بها ·

● والأستاذ « اربرى بكمبردج » يحترم التصوف ككل ويلمزه فى كثير من وسائله ومعارفه ·

● ويقول الدكتور « مارتن » : ولقد نشـــرت بالمجلة الاسلامية بلندن · مقالا تحدثت فيه عن أصول التصوف · ورددت فيه على دعاوى المستشرقين ·

● والعلامة الفرنسى « رينيه جينو » يقول : الحق أن التصـــوف عربى اســـلامى · كما أن القرآن الذى يســـتمد التصوف أصوله منه مباشرة · عربى اسلامى واذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن فمن الطبيعى الا يوجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبرا تنفجر عنه ينابيع (الحقائق) · التى هى فى الواقع معناه العميق ولقد فســـر القرآن أولا لغويا · ومنطقيا وكلاميا ولكن تفسيره صوفيا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول · واذا كان القرآن مصدر الشريعة · والحقيقة معا · فلا يمكن أن يوجد بينهما

تناقض أو اختلاف ما • وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ ـ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لا تقوم الا على الشريعة فى أساسها وفى سندها •

ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو التأثير الروحى أو بتعبير أدق البركة • وهى لا تتأتى الا بواسطة شيخ • ومن هنا كانت الطرق • ومن هنا كانت السلسلة • وما السلسلة الا بركات تنتقل من شيخ الى مريد يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين •

ونختم هذه الكلمة بمـــلاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى أن التصوف ليس عملا عمليا ولا بحثا نظريا• أنه لا يتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية بل ان ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم الا كحافز مقو للتأمل • والانسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفا • على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه الا من كان أهلا لفهمه • ولأجل أن يسير الانسان فى طريق التصوف لابد له من :

١ ـ اســـتعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب •

٢ ـ الانتساب الى سلسلة صحيحة • اذ أن البركة التى تحصل من الانتساب الى السلسلة الصحيحة هى الشـــرط الأساسى الذى لا يصل الانسان بدونه الى أية درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها • ثم يأخذ المتصوف

الطيب الفطرة · الذى باركه شيخه فى الجهاد الأكبر التأمل الروحى · وفى الذكر - أى استحضار الله فى كل مايأتى وما يدع · وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موفقا من درجة الى درجة · حتى يصل الى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا ذلك هو الصوفى الحقيقى ·

● والأستاذ « جاك دى ماركيت » : يقول فى كتابه مقدمة للمقارنة فى مذاهب التصوف · وهو مقارنة بين تصوف الهند · وتصوف المسيحية · وتصوف الاسلام : فخلاصة التصوف الهندى - تحذير المرء من شهواته · وتحذيره من قمع هذه الشهوات بالعنف والقسوة فرياضة الرحمة هى مفتاح الحياة الأبدية ·

- وخلاصة التصوف اليونانى : ان الله جوهر من العقل الخالص من شوائب الأجسام وأن التأمل فى الحقائق هو سبيل الوصول الى الله ·

- وخلاصة التصوف العبرى - اذا كانت مخافة الله تاج الحكمة فهى أيسر لباس المسكين · وخلاصته المستعارة من فلاسفتهم مذهب « فيلون » الذى يقول : ان الله خلق العقل ليعمل به فى الموجودات · ومنها الانسان ·

- وخلاصة التصوف المسيحى : ان نجاة الروح لا تكون بغير نعمة من الله وبغير فداء ·

- وخلاصة التصوف الاسلامى شعبتان :

١ ـ شعبة تذهب الى اعتزال الدنيا لأنها باطل ٠ وتفنى فى الله لأنه هو الحق دون غيره ٠

٢ ـ وشـــعبة أخرى لا تعتزل الدنيا لأن الله سبحانه وتعالى يتجلى فيها ٠ وآياته التى يتجلى فيها ٠ هى سبيل الوصول اليه ٠ وهذه هى الصوفية المفضلة فى الاسلام ٠

لا اهمال للدنيا ولا انحصار فيها ٠ بل نفاذ منها الى الحق والى الكمال ٠٠ وخلاصة الخلاصات جميعا :

ان الايمان سعادة الروح ٠ وان المعرفة والبصيرة قوام السعادة ٠

● أما شيخ المستشرقين العلامة « رينولد نيكلسون » : فيحدثنا عن الشريعة والطريقة ٠ والحقيقة فى محاضرات له عن الشخصية فى التصوف :

انكم جميعا تعلمون معنى كلمة التصوف ٠ واننى لا استعملها هنا الا فى المعنى العادى ٠ اى فى الدلالة على التصوف الاسلامى ٠ او على تلك الحياة الدينية الخاصة التى نقرأ وصفها فى أقوال متصوفة المســـلمين ومؤلفاتهم وربما يعنينا فى هذا الصدد ان نشرح الى اى حد تتضمن تلك الحياة أو تتضمن التجربة الصـــوفية فكرة الشخصية سواء أكانت شخصية الصوفى العابد نفسه ٠ أم شخصية الرسول ٠ أم شخصية من نعبد وهو الله ٠

ولم تجد الحياة الدينية الاسلامية مثالا اعلى فى أى انسان الا فى شخصية النبى محمد . فاذا بحثنا فى الصلات التى يعتقد المسلمون وبخاصة الصوفية بوجودها بين الله ورسوله من جهة . وبين الرسول وأنفسهم من جهة أخرى . فقد وصلنا الى لب المسألة التى تصدينا لبحثها .

والقرآن يعلن بان الله هو الحق . وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان كل شىء هالك الا وجهه . وان كل من على الأرض فان . ولا يبقى غير وجه الله . وان الله نور السموات والأرض . وانه أقرب الى الانســـان من حبل الوريد . وانه ما يكون من نجوى ثلاثة الا وهو معهم .. تلك هى الآيات التى لا تكل ألسنة الصوفية عن ترديدها لأنهم نظروا الى الله ، قبل كل شىء . وبعد كل شىء . نظرتهم الى المحبوب بالذات . أما الرسول فقد أحب الله هذا الحب أيضا . وان امتزج حبه بشىء من الرهبة والخوف من الله وقد وصف الله نفسه فى سورة البروج : بانه يحب المتقين ويحب الصابرين . ويحب المتطهرين .

● وهذا رأى أحد كبار المفكرين العالميين الفرنسيين الكاثوليكى . والذى هداه الله الى الاسلام وتسمى الشيخ « عبد الواحد يحيى » انتهى به البحث الى الاسلام والتصوف ومارس التصوف نظريا وعمليا حتى ليعد أكبر الحكماء فى العصر الحديث . وترجمت كتبه الى اللغات الحية . وكان أثره فى الغرب كبيرا . الى درجة ان كثيرا من الجمعيات

فى أوروبا كونت باسمه لتبالغ أثره وتحذو حذوه ٠

والعالم فى هذه الكلمة يكتب عن تجربة وخبرة وممارسة لا عن وجهة نظرية وحسب يقول :

يبدو أن كثيرا من الناس يشكون فى ضـــــرورة التزام الشريعة لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفى ٠ وهذا فى الواقع استعداد نفسى لا يوجد الا فى الغرب الحديث ولا شك فى أن أسباب ذلك متعدده ٠ ولا يعنينا هنا البحث فى مدى المسئولية التى تقع على عاتق رجال الدين أنفسهم الذين يميلون الى انكار كل ما يتجاوز حدود الشريعة فى مظهرها الحرفى ٠ فليس ذلك جوهر بحثنا هنا ٠ بيد انه من المدهش ان بعض من يقعون فيما وقع فيه رجال الشريعة ٠ وان كان بطريقة عكسية ذلك انهم ينكرون ضرورة الشريعة أو يهملون العمل بها ٠

وقد يكون من المحتمل ان نرى أحد ممثلى الشـــــريعة يجهل التصوف وان كان جهله لا يبرر انكاره ٠ ولكن ليس من المحتمل وليس من الطبيعى ان يجهل رجل التصـــــوف ميدان الشريعة ٠ ولو من جانبها العملى ذلك أن الأكثر ٠٠ وهو ــ التصـــــوف ــ يتضمن بالضـــــرورة الأقل ٠ وهو الشريعة ٠

على أن نظرة من يريد أن يسلك السلوك الصوفى الى الشريعة من حيث عدم أهميتها ٠ وعلى الخصوص أهمية الجانب العملى منها بالنسبة له ٠ هذه النظرة تتضمن ولو

نظريا . تقليل أهمية الجانب العملى فى التصوف نفسه وفى هذا الخطورة كل الخطورة . فانه من المشكوك فيه كثيرا . ان يتوفر للشخص الذى عنده هذه الفكرة . الاستعداد الصوفى . ومن الخير له أن يلتزم الشريعة التزاما كليا قبل ان يبدأ السلوك . فاذا لم يمكنه التزامها فلا خير فيه بالنسبة للجانب الصوفى .

ان تقليل شأن الشريعة انما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله واعادة تكوين الروح الخاضعة لما أنزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين وتجاهل الناحية العملية . انما هو سمة من سمات الغرب الحديث على الخصوص ومن الطبيعى ان يقوم الجو الدنيوى الذى يعيش فيه الغربيون عقبة فى سبيل فهمهم للجانب العملى من الشريعة وممارستهم له . بيد أن مقاومتهم لهذا الجو الدنيوى هو بالضبط العلاج لانحرافهم هذا . وهو السبيل الى عودتهم الى النهج المستقيم . أعنى التزام الشريعة .

قلنا : ان الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا : انما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفى الواقع لا يمكن ان يوجد هذا الاتجاه فى الشرق . ذلك أن الروح الدينية الصحيحة لاتزال مسيطرة فى بيئاته .

ثم ان الشريعة والحقيقة متصلتان اتصالا يجعل منهما مظهرين لشىء واحد . احدهما خارجى والآخر داخلى أو احدهما ظاهر والآخر باطن .

لذلك كان مايوجد فى الغرب الآن من جماعات تدعى انها على المنهج الصوفى وهى مع ذلك لا ترتكز على اية شريعة الهية مجرد خداع • ومن البدهى ان هذه الجماعات من وجهة النظر الصوفية الصحيحة ـ ليست على شىء •

ولشرح الأشياء بأبسط الطرق نقول : ان الانسـان لا يشيد القصر فى الهواء • انه لا يشيد على غير أسـاس وكل فكرة لا ترتكز على اساس من السنة الصحيحة انما هى بناء فى الهواء • انها بناء على غير أساس •

والبناء الذى يمكن أن يبقى على الدهر لابد له من أساس مدعوم وعلى الأساس يرتكز البناء كله حتى الأجزاء العليا منه • والارتكاز على الأساس يستمر حتى بعد انتهاء البناء •

وعلى هذا النمط تكون النسبة بين الشريعة والتصوف فالشريعة الصحيحة هى الأساس الذى لابد منه لكل سالك وكالأساس تماما لا يمكن طرح الشريعة بعد سلوك الطريق • بل نقول أكثر من ذلك •

انه كلما سار المتصوف فى طريقه واستغرق فيه • بدت له ضرورة الشريعة واستنارت معرفته بها • وأصبح فهمه لها أكثر عمقا وأكثر دراية بحقيقتها من هؤلاء الذين درسوها وآمنوا بها دون أن يضربوا بهم فى الميدان الصوفى • ذلك انهم لم يروا من الشريعة الا مظهرها الخارجى • ولكن

الصـــوفى يعيش فى جوها الروحى ويحياها اذا جاز هذا التعبير ٠

على أن هذا الذى لا يعتنق شريعة صحيحة ولا يلتزمها لا يمكن أن يحيا الا حياة دنيوية بحتة ٠ فلا يمكن أن يطلق علي رجل دين فضلا عن أن يطلق عليه وصف الصوفى ٠ على أن الغربيين الذين يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم اليومى كما هو شأن الأكثرية الساحقة منهم ٠ فلايمكن أن يوصفوا بانهم متدينون ٠ وان آمنوا بعيسى ؑ وأدوا الشــــعائر الكنسية ٠

واذا كان لا يقبل من رجل الدين ان يعلن تدينه دون أن يجعل للشريعة السيطرة على قياده ٠ فانه لا يقبل من باب أولى من رجل التصوف ان يزعم انتسابه الى الصوفية دون أن تسيطر شعائر الدين والتزاماته على حياته وهناك لا شك نوعان من الحياة :

حياة دينية ٠٠ وحياة دنيوية ٠ ومع ذلك فالفرق بينهما انما هو من جهة ما تصطبغ به فكرة الانسان عن الأعمال التى يؤديها ٠

أريد أن أقول : ان الأعمال فى نفسها لا توصف بانها دينية أو دنيوية ٠ وانما يتأتى لها أحد الوصفين بسـبب سـيطرة الفكرة الدينية عند القائم بهذه الأعمال أو عدم سيطرتها ٠ وقد يكون العمل واحدا فى نوعه ويؤديه شخصان فيوصف عند احدهما بانه دينى ٠ وعند الآخر بانه دنيوى ٠

فان كان القصد لله فالعمل دينى ·وان كان القصد شيئا آخر فالعمل دنيوى والحديث الشريف يوضح هذه الفكرة كل التوضيح ·

× « انما الأعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله· ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » ·

ومن البدهى ان الحديث فى أوله عام بالنسبة لكل الأعمال وان مسألة الهجرة فيها تطبيق جزئى لقضية عامة ·

وفى العصور القديمة لم تكن هناك تفرقة بين دين ودنيا· بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه · وانما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الانسانية وانحطت شيئا فشيئا · وها نحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر الى درجة أن الغرب حاليا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته ، انه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة ·

واننا نرى ضرورة التزام الشريعة لكل انسان ·· ولكننا نؤكد ونحن على يقين من الأمر لهؤلاء الذين يريدون ان يسلكوا الطريق الصوفى بانهم لن يصلوا حتى الى أولى مراحل الطريق اذا لم يلتزموا الشريعة التزاما تاما ·

ليس التصوف فى الاسلام كما يتصوره البعض سلبية وعزوفا عن الحياة وانصرافا عنها وعزلة فى كهف أو مغارة ·· ولكنه فهم دقيق لرسالة الانسان فى هذه الحياة الدنيا ومراقبة لله فى كل الأعمال · وليس مصدره سوى روح الشريعة ومبادئها العامة ·

غير ان المستشرقين ذهبوا مذاهب شتى فى بحث هذا الموضوع ومعرفة مصادره ورأي بعضهم ان التصوف مذهب دخيل فى الاسلام · مأخوذ · اما من رهبانية الشام · واما من افلاطونية اليونان الجديدة · واما من زرادشتية الفرس واما من فيدا الهنود · وهو رأى « جونس » ·

ولقد كان للطرق الصوفية دوران واضحان لا سبيل الى انكارهما :

ـ الدور الأول هو استغلال الاستعمار لهذه الفرق لخدمة اغراضه ·

ـ والدور الثانى هو ما قام به المتصوف المسلم فى قلب أفريقيا من الدعوة للاسلام ونشره على نحو عجزت عنه قوى التبشير الضخمة المؤيدة بمال وجاه الدول المستعمرة ·

وفى مصر فى ابان الاحتلال البريطانى كانت الطريقة الدمرداشية التى يرأسها « عبد الرحيم الدمرداش » تحظى برعاية الاستعمار · وقد حرصت الصحف الدائرة فى فلك

وفجأة بدون مقاومة منى ولا اعتراض ولا احتجاج وبدون ما سبب سأختفى مكفنا بالوحدة والسكينة ومشيعا بمناديل الورد والفل وأطفال النجوم ونبات الجداول .. وفى الحال سأتحول الى نبأ فى جريدة والى عبارات نعى فى رسالة والى حديث يدور بين أصدقائى فى الأسابيع الأولى كلما اجتمعوا ..) .

ويتصور المؤلف أن الحياة لابد أن ستعوض بلاده عنه بطفل جميل يقضى أعوامه الأولى فى الغابة ثم يتحول عنها الى المدينة يسير على دربه ويحمل رسالته .

(فى ذلك اليوم وفى الساعة الخامسة صباحا منه . سيلقى الفجر مع الندى فى حدائق بلادى طفلا ستكسوه الزهور بأكمامها وسيطعمه البنفسج من ذوب خدوده ، سيعيش فى الغاب مدة طويلة تائها فى الوهاد وشعاب السهول والأودية ثم يدخل المدينة منتصرا .

احفظوا هذا التاريخ ، احفظوه وترقبوه ؛ وانتظروا ولادة هذا الطفل . هكذا اخترت يوم موتى: وهكذا اخترت منيتى فلقحتها بولادة هذا الطفل .

جموع الصوفية فى رسم صورة فردية للشعوب التى احتلها ·· وقد نشرت الصحف فى ١٨ ابريل عام ١٩٣١ ان احتفالات تكية المولوية بالحلمية الجديدة قد حضرها الأجانب من فرنسيين وأمريكان وألمان وانجليز · وثلاثة وزراء مفوضين·

وقالت : ان الدروايش قاموا وانتظموا فى حلقة الذكر المستديرة · وأخذوا يذكرون الله · وكلما احتدم الموسيقيون فى عــزف الأناشــيد رأيت الدراويش قد امتدوا فى اللف والدوران على نحو بديع ·

وقد كانت تنقل هذه الصورة الى أوروبا على انها هى ــ صورة الاسلام ــ وقد ظهرت فى خــلال فترة ســيطرة الاستعمار على العالم العربى عديد من الطرق التى لم يكن لها هدف سوى خلق روح القدرية · والنكوص عن الجهاد ومخالفة مفاهيم الاسلام فى الحرية والجهاد · اما السنوسية والمهدية فقد آمنت بمفاهيم الاسلام وقامت دعوتهما على أساس تحرير الوطن من الاستبداد العثمانى ومقاومة النفوذ الأجنبى · وجهاد المهدية ضد الانجليز وجهاد السنوسية ضد ايطاليا معروف ·

وأشار « علال الفاسى » فى كتابه المغرب العربى · عن دور الطرق الصوفية فى مراكش قال : ان الدعاية الفرنسية جندت فى الشمال الأفريقى قسما كبيرا من مشايخ الطرق الصوفية الذين اعتادوا أن يعملوا لمصلحة رجال الحكم أو

الذين خلقتهم الادارة الفرنسية لتسخيرهم فى أغراضها ٠ فاشتغل « محمود التيجانى » فى الجزائر ٠ و « عبد الحى الـكتانى » فى المغرب ٠ و « ابن عزوز » فى تونس دعـاة متحمسين للسياسة الفرنسية ٠٠ وقال : ان الطرق الصوفية كان لها أثر كبير فى المغرب العربى ولكن تدهور الأمل وتغلغل الفوضى الاجتماعية فى معظم القبائل قلب هذه الطرق الى منظمات يشرف عليها فى الغالب انتفاعيون نصبوا أنفسهم ليكونوا الوساطة الفعالة بين الحكومات المحلية وبين الشعب ٠٠ وكانت السلطة لا تستطيع حفظ الأمن ولاجبى الضرائب ٠٠ ولا تعبئة الجيوش الا عن طريق هؤلاء الذين يدعون انهم يشفقون عليها من بركة نفوذهم ما يسهل عليها تحقيق أغراضهم ٠ وقد سار هؤلاء المشايخ يتجولون فى القبائل والمدن يبشرون بسقوط الألمان وبشاعة حكم الاتراك وينوهون بقيمة العمل العظيم الذى تقوم به فرنسا وانجلترا فى الشرق العربى ٠

٥

● ومما ذكره « علال الفاسى » : ان فرنسا اتجهت الى انشاء خلافة اسلامية فى أفريقيا الاسلامية تحت حكم سلطان فرنسا ٠

ومما يتصل بهذا أن المسلمين الذين تيقظوا الى خطر هذه الفرق على حركة التحرر قد فطنوا أيضا الى مفاهيم الاسلام الحقة التى تحرفها الطرق الصوفية على النحو الذى صـــوره الشيخ « محمد عبده » من الدعوة الى التواكل

والقدرية • وتنفير الناس من العمل • وتحت هذه العناوين يمكن دعوة الناس الى قبول الاستعمار والرضا بالحاكم المستبد •وقبول الغزو الأجنبى • وهذا ما يختلف اختلافا بينا مع ما دعا اليه الاسلام من الجهاد ومقاومة الغاصب واليقظة • والسعى فى الأرض • واقتحام مجاهل العلم وكشف قوى الطبيعة والعمل المتصل •

ولا شك أن الطرق الصوفية فى مذاهبها هذه تختلف اختلافا واضحا عن مذهب التصوف العقلى • أو الجسدى الذى دعا الى رياضة النفس على قمع الشهوات ورفض الدنيا • فان هذا المذهب من شأنه ان يدفع المسلم الى الجهاد • مؤمنا بالاستشهاد فى سبيل الحق الذى يؤمن به حيث يرى الدنيا لا تغريه • وهذا هو الفهم الصوفى الذى فهمه المجاهدون من المسلمين فى الصدر الأول • أما الزهد بمعنى الانصراف من الدنيا • فهو ليس مذهبا فى الاسلام •

وهكذا حرص دعاة التغريب من المبشرين والمستشرقين وأعوانهم من كتاب الغرب الى البحث فى الصوفية واثارة مذاهبها ودعواها والحديث عن المتطرفين من دعاتها أمثال: « السهروردى » و« ابن عربى » و « الحلاج » و « عبدالقادر الجيلانى » • وهم فى ذلك انما يهدفون الى بلبلة الفكر العربى • واثارة مذاهب الحادية ومعقدة يقصدون من ورائها تصوير الاسلام بصورته البسيطة السهلة • ومن ذلك من مذاهب كلامية لم تكن أصلا من الاسلام وانما ادخلت عليه من الفلسفات المسيحية والهندية واليونانية •

ولقد حمل الفكر العربى المعاصـــر لواء الدعوة الى فتح باب الاجتهاد والعودة بالدين الى منابعه الأولى كخطة لمقاومة حملات التغريب · والغزو الثقاف وكوسيلة لاشاعة اليقظة التحرر من قيود التقليد التى كانت عملا أســـاسيا فى تجميد الفكر خلال حكم العثمانيين ·

وكان « محمد بن عبد الوهاب » · أول من حمل هذا اللواء متأثرا بدعوة « أحمد بن حنبل » · و « ابن تيمية » غير أن الوهابية لم تستطع أن تحرز المدى الواسع الكفيل باندفاعها ثم جاءت دعوات من بعد حملت هذا اللواء ·· وانطلقت به الى أقاليمها · كالمهدية والسنوسية وغيرها ·· غير أن « جمال الدين الأفغانى » · كان أقوى من حمل هذا اللواء الى العالم الاسلامى كله فى كلماته القليلة وكتاباته النادرة · وفى مصر حمل اللواء من بعده « محمد عبده » · و « رشيد رضا » و « المراغى » ·

وتأثرت خطـــاه الشـــام فظهر بها « الكواكبى » · و « المغربى » و « العراقى » فظهر بها « آل الالوسى » · وفى المغرب برزت الدعوة الى السلفية · واحتلت حيزا كبيرا من الفكر العربى كسلاح قوى لمقاومة الاستعمار والتغريب · والغزو الثقاف والتبعية الثقافية للغرب ·

● قال الاستاذ « أحمد التيجانى سى » سفير السنغال

بالقاهرة سابقاً فى حديث بمجلة الاسلام والتصوف(١) : هناك طريقان سلكهما الاسلام وهو فى طريقه الى السنغال ليخرج أهله من الظلمات الى النور :

ـ الطريق الأول ـ كان عبر موريتانيا · حيث جاء الينا منه رجال من التجار العــرب حينا · ومن الدعاة الصوفية أحيانا ·

ـ والطريق الثانى ـ كان من المغرب العربى ـ فى حدود القرن الرابع الهجرى ·· حيث أخذ رجال من المرابطين الذين نذروا أنفسهم لله والدفاع عن الاسلام · والدعوة اليه · يتدفقون على السنغال دعاة مرشدين · وبالموعظة الحسنة · والأسوة الطيبة ـ استطاع الصوفية من ابناء المغرب العربى ··ان يجعلوا للاسلام الكلمة الأولى فى السنغال وتبلغ نسبة المسلمين اليوم عندنا ٩٥٪ من ابناء السنغال وأشهر الطرق الصوفية عندنا التيجانية · ثم المريدية · وعندنا عدد قليل من اتباع القادرية · وحسبى أن أقول أن المسلمين عندنا صوفية جميعا تقريبا ·

وتكلم سيادته عن الدور الذى قامت به الطرق الصوفية فى نشر الاسلام فى أفريقيا بقوله : فى افريقيا قابلية طبيعية للتصوف · ولهذا استطاع الصوفية ان يمشوا بالاسلام الى كل مكان فى أفريقيا · مبشرين ودعاة يصــاحبهم النجاح

---

(١) السنة الرابعة ـ العدد الخامس ·

العظيم دائما · كما وقفوا كالأسوار التى لا تقتحم فى وجه بعثات التبشير العالمية يحمون قلب أفريقيا وعقلها ومن اغرائهم وتبشيرهم ·

وان نظرة الى الكتب الأوروبية وما يكتب فيها · والى ندوات المستشرقين · وما يلقى فيها حول هذا الموضوع ليرشد الى ضخامة الدور الذى يقوم به الصوفية نحو صبغ افريقيا كلها بالصبغة الاسلامية ·

وقال سيادته عن مستقبل الاسلام فى أفريقيا : أفريقيا قارة الغد وقارة الاسلام بلا ريب · وانما أفريقيا تحتاج الى معاونة العرب والمسلمين · تحتاج الى الثقافة الاسلامية · والى التوجيه والارشاد من اخوانهم العرب ·

● ويقول الشيخ « بحبح السطوحى » شيخ مشايخ الطرق الصوفية : أنا عندما أفكر فى التصوف · أتصوره ايجابيا · أتصوره لا يخرج عن : ان التصوف ليس ضعفا ولا خمودا · انه جهاد فى أعلى ذراه : العلم فى أصفى موارده · والخلق فى قمة مثله ·

● وان المؤرخ «الجبرتى» يروى لنا : ان هزيمة الحملة الفرنسية على مصر كانت على أيدى رجال المقاومة من أبناء الطرق الصوفية ·

– وانى أعلنها صريحة على لسانى : ان التصوف ليس

حركات وأزياء وتشنجا . ان التصوف عبادة وعمل وجهاد ومعظم هؤلاء يتسولون الناس . وهذا خطأ كبير . فلا يمكن أبدا أن يكون الصوفى متسولا . لأن الرسول (ص) كان المثل الأعلى فى كسب رزقه بعرق جبينه .

والصوفية ليست اعتكافا فقط . الصوفى الحق يعمل ويعيش . الصوفى يمارس الحياة ويمتلك طيباتها ولكنه لا يتبع خطوات الشيطان .

والصوفى الحق هو الذى يتحرر من ذل المادة وذل الغرائز يتحرر من كل القوى التى تستعبد الناس . الصوفى الحق هو الحر الأول فى هذا العالم . الصوفى الحق هو المجاهد الأكبر فى هذا الكون .. أنا مثلا كنت مخيرا بين اثنين : العلم والعمل . أم الخلوة . فاخترت العلم والعمل .. ولكن الخلوة أيضا رائعة وجميلة لمن تسمح له ظروفه .

لقد اختلفوا فى كلمة الصوفية . لأن التصوف يرجع تاريخه لأكثر من ٦٠٠ سنة . أيام الخمسة الصوفية الكبار سيدى « أحمد البدوى » . و « أحمد الرفاعى » . و « ابراهيم الدسوقى » و « أبى الحسن الشاذلى » و « عبد القادر الجيلانى » .

ــ وقال بعضهم : انها نسبة لكلمة الصفاء ــ أى صفاء الروح .

ـ وقال البعض الثالث : انها نسبة الى لبس الصوف الذى كان الزهاد فى القرون للهجرة ٠

اما الكثرة الغالبة من المســـتشرقين ٠ وفى مقدمتهم « ماسينيون » فيرجح كلمة الصـــوفية الى كلمة ســوفيا اليونانية ومعناها الحكمة ٠ فعندما فلسف المسلمون عقائدهم ودينهم ـ على حد قول المستشرق : سمى هؤلاء الفلاسفة : صوفيين ـ أى حكماء اليونانية(١) ٠

---

(١) جريدة الجمهورية ـ ٢٥/١١/١٩٧٠ م ٠

انتشــار الاســلام

لقد اعترف كثير من كبار رجال الاستشراق عن أسباب سرعة انتشار الاسلام . وقد اكتفينا برواياتهم عن روايات اعترافات كثيرة لغيرهم من رجال الغرب . وذلك لما فيه الكفاية فى نظر المنصفين الذين يرحبون بقول الحق ممن كان وفى اى مجــال كان . مع أن غرضــنا ليس اســتيعاب الاعترافات فى هذا الباب . وانما هو تقديم نماذج ليتذكر أولو الألباب :

● قال مسيو « ادوار مونتيه » مدير جامعة جنيف فى محاضراته التى ألقاها فى كلية جنيف : ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة . وقلما يوجد . بل لا توجد أبدا . ديانات تنتشر . ولاتزال تنتشر بمثل هذا الانتشار وأن ما صادفه الاسلام من أول عهده كان عظيما وباهرا . حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة « محمد » (ص) . واصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب . لقد كرروا ولايزالون يكررون الآن : ان نجاح

العقيدة الاسلامية يرجع الى العنف · والى قوة السيف فى عهد « محمد » · وعهد الخلفاء الأولين · لكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع فهى لا تضع موضع الاعتبار · العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها ·

ويلوح لى ألا شك فى أن الاصلاح الاسلامى كان فى أول عهده دينيا محضا · وان « محمد » (ص) كان نبيا بالمعنى الذى كان يعرفه العبرانيون القدماء · ولقد كان بدافع عقيدة خالصة أن قطع كل صلة بالوثنية · وأخذ يسعى لانتشال مواطنيه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرة وليخرجهم من حاله فى الأخلاق والمدنية المنحطة كل الانحطاط · ولايمكن ان نشك · لا فى اخلاصه ولا فى الحمية الدينية التى كان قلبه مفعما بها · فتلك هى الأفكار والعواطف التى أثارت فى نفسه حب الدعوة الى الاصلاح التى قام بها فى مكة ثم فى المدينة الى أن قال : وقد أورد بعضهم تفسيرات أخرى لهذه الحقيقة · وهى سرعة انتشار الاسلام فى أول عهده الا انهم ذهبوا ـ على مانظن ـ الى البحث عنها بعيدا · بينما انه يكفى ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ان ننظر الى الظروف العامة والطبيعية فى حياة كل هيئة انسانية فقد ظن البعض : إن انتشار الاسلام بمثل هذه القوة يرجع الى مهاجرة الجنس العربى اخيرا للخروج من بلاده التى لم يجد فيها جميع الأسباب متوفرة لرقيه وتقدمه ·

ويزيد البعض الآخر على هذه الاعتبارات زاعمين ان

لسبب الأول لمهاجرة العرب الذى أدى فى القرن السابع لمسـيحى التى اعتنـاق قسم كبير من الشـرق للدين لاسلامى أن السبب الأول لابد أن يبحث عنه فى التحول لبطىء لبلاد العرب فى خلال آلاف السنين : ذلك التحول لذى كان من نتيجته الجفاف التدريجى بشبه جزيرة العرب لتى تعادل مساحتة ثلاثة أرباع أوروبا · الا اننا نخشى كثيرا أن يذهب بنا هذا التغيير الجوى التام · الى ما قبل التاريخ ·

فاذا كنا رأينا من المفيد ان نأتى بهذا البيان الوجيز على أسباب سرعة انتشار الاسلام فى أوائل زمن الهجرة · نذلك لأن هذا الدين ما فتىء ينتشر فى الوقت الحاضر ·· ولأنه فى حركة تقدمه المستمرة هذه التى تسوقه دائما الى الامام · نجد أن السببين الجوهريين اللذين بيناهما فى أول نشأته مايزالان العاملين القاطعين لدواعى نجاته · وانا نجد فى سير الاسلام الممتد · وانتشـاره فى خلال القـرن العشرين · هذان النوعان من الأسباب مجتمعة الأسباب الدينية البحتة والأسـباب السـياسية والاقتصـادية والاجتماعية ·

● وقال مسيو «ادوار» فى محاضراته أيضا : الاسلام فى واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه · أريد أن أقول : انه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية · رسول لدينه مبدئيا فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة · وتلك خصية من خاصيات الاسـلام أنه

يستحوذ تماما على نفس المؤمن بكليته وجزئيته وانه ان وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة • أو من غير المبالين فان الحمية من الصفات المميزة للدين الاسلامى • وانى اكرر ان المسلم غالبا يحمل فى جسمه أنسجة المبشر الاسلامى •

فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه • فهو ينتشر بواسطة القوافل التى تذهب للتجارة فى البلاد الوثنية او التى تعبد فيها الاصنام • فرسل الاسلام تدفعهم الغيرة للتبشير الى الالتجاء بالوسائل المختلفة والملائمة لكل حالة خاصة فى البلاد وفى الشعوب التى يقومون فيها باداء عملهم الدينى • وهنا نرى العامل الدينى يعمل عمله ـ بجانب العاملين : الاجتماعى والاقتصادى •

فالاسلام فى البلاد الشاسعة التى ينتشـــر فيها ويمتد نفوذه • ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية فى أوفى الحالات • وتباعا يعتبر الاسلام من أولى وسائل التقدم والرقى •

● ثم يمضى مسيو « ادوار » يقول : والاســـلام فى الواقع حضارة قائمة بنفسها حضارة ترجع أصولها الى قديم الزمان • بلغت تلك الحضارة أوج مجدها فى الشـــرق والغرب فى الزمن الغابر • ثم أخذت فى الهبوط والانحطاط • ولكنها لم تنعدم فى وقت ما • قط • بل وسنرى فى قسم آخر من هذه الأبحاث كيف أن هذه الحضـــارة فى المقاطعات الأفريقية الوطنية التى دخلت فيها • قد ظهرت بدرجة عالية

من الرقى · والتقدم من الوجهة الادارية والاجتماعية · كما هى كذلك من الوجهة الفكرية والخلقية والدينية ·

ثم قال : وهذا صحيح حتى ان أحد النقاد المحايدين · استطاع أن يجاهر بالقول عند المفاضلة بين نتائج الاسلام فى افريقية الغربية وبين نتائج تنصيرها · وبالأحرى بين نتائج صبغها بالصبغة الأوروبية · وهو يريد ان يقول بين تاثير عمل الاسلام · وتاثير عمل المسيحية فى تلك البلاد من جميع الجهات · استطاع ان يجاهر بقوله : اننا بمقارنة مجموع النتائج التى تسببت عن دخول الاسلام · وبين نتائج النصرانية (ليس فقط من وجهة عدد المعتنقين للدين · لأنه فى هذه الوجهة نجد ضعف المسيحية واضحا كل الوضوح · بل ومن جهة التاثير الفكرى والخلقى والاجتماعى على الجماعات وعلى الأفراد) · اذا قارنا بين كل تلك النتائج · فاننا نجد بدون أى شك أن المقارنة فى مصلحة الاسلام ·· وفى الختام قال :

فاذا كان الاسلام بداعى سموه له تاثير راجح فى افريقيا فانه يجب علينا ان نثبت كذلك ـ وهذه هى ثانى نقطة من خطتنا العامة ـ ان الاسلام يمتاز بخاصيته الملائمة لذكاء الشعوب الأفريقية · ذلك الذكاء الوقاد ·

وانى اقول : نحن الى اليوم لا نتمكن من احصاء دقيق للمسلمين فى لبنان · وفى الحبشة · وفى روسيا · ومعظم بلاد افريقيا السوداء ·· وليس أمام الباحث الا أن يعتمد

على التخمين أو يرجع الى المصادر الأجنبية ومعظمها اما من وضع المستشرقين ٠ واما من وضع المبشرين ٠ وكلا الطرفين لا يضع نصب عينيه النزاهة ولا تعنيه الدقة فى المقام الأول ٠ فنحن دأبنا منذ سنوات على أن نذكر : ان المسلمين اليوم أكثر من سبعمائة مليون مسلم فاذا وجدنا كتاب يقظة العالم الاسلامى « لفرنو » يحصيهم بمائتين وخمسين مليونا ٠ فلا يســعنا الا أن نقف موقف الحائر القلق ٠٠ والمشكلة لم تزل قائمة ٠٠ أليس من الواقع المر ان يعنى الأجانب من المستشرقين والمبشرين العناية التامة فى مؤلفاتهم بشئون الاسلام والمسلمين ٠ ونحن المسلمين نكتفى بالتهام هذه المؤلفات ٠ ونضطر الى الاعتماد عليها ٠ ونعطى أنفسنا حكم المضطر الذى لا اثم عليه ٠

ان أطلس التاريخ الاسلامى ٠ هو الوحيد بين أيدينا ٠ وهو بكل أسف من وضع علامة أمريكى هو « هارى هازارد » ٠٠ ولو لم يترجم الى العربية فى القاهرة ٠ لظل الناطقون بالضاد محرومين منه ٠ كم مؤلف ضخم وأجنبى صدر فى الأعوام الأخيرة ٠ كلها تهتم بشئون الاسلام المعاصر ؟ ٠ ومؤلفوها ممن يجب ان نقف منهم موقف الحذر :

ـ كتاب داخل أفريقيا ٠٠ وكتاب داخل آسيا ٠ لمؤلف أمريكى هو « جون جنتر » ـ وكتاب الاسلام فى العصــر الحديث - لكاتبة ألمانية هى « الس ليختنستادتر » التى قضت فى بلاد الشرقين الأدنى والأقصى ثلاثين عاما ٠ وكتاب

الشرق الأوسط فى العصور الاسلامية · وهو فى سبعمائة صفحة ومؤلفه « سدني فيشر » أستاذ التاريخ بجامعة أهيو ·· بأمريكا ·· وكتاب الاسلام والجماعة المتحدة · ومؤلفه « مونتجومرى وات » · عميد قسم الدراسات العربية بجامعة ادنبره · وكتاب يقظة العالم الاسلامى · وهو جزءان ومؤلفه « ف · وفرنو » ـ وكتاب كفاح الشرق الاسلامى ومؤلفه « هانس رود » · وكتاب الاسلام فى أفريقيا الشرقية ومؤلفه مبشر هو الدكتور « ليندون هاريس » ·· وكتاب الاسلام فى التاريخ الحديث ومؤلفه « ولفريد كانتول سميث » أستاذ الدراسات الاسلامية بجامعة مونتريال ·· وكتاب المسلمون السود فى أمريكا · ومؤلفه القس الأمريكى « أريك لنكولن » ·· وكتاب الدين والشئون السياسية فى باكستان ومؤلفه عضو فى قسم الدراسات السياسية المتخصصة لمسائل الشرق الأوسط والشرق الأدنى · وهو « ليانارد بانيدر » · ثم دور الاسلام فى مستقبل أفريقيا وقد تناول هذا الموضوع عديد من كتاب الغرب ·

ولسنا نذكر هذه الكتب على سبيل الحصر · فهناك عشرات الكتب عنيت عناية تامة بالاسلام والمسلمين فى شتى أحوالها ولكن الذى نود ان نقوله : اننا لم نزل متخلفين فى العناية بأخص مقومات حياتنا · ولا يمكننا أن نتلافى هذا التقصير الا اذا اتجهت الدوائر الاسلامية الى وضع دائرة معارف عن الاسلام والمسلمين فى العالم · باقلام اسلامية تتحرى الانصاف والدقة ولا تخضع لاتجاهات سياسية ·

ولا تتأخر . بخلافات لم تزل قائمة بين كثير من دول الاسلام .. على أن يصدر ملحق فى كل عام يستوعب ما جد فى العالم الاسلامى .

ان هذه المسئولية تقع على عاتق المؤتمر الاســلامى وعاتق المجلس الأعلى للشئون الاســلامية وعلى الأخص عاتق الأزهر وفيه مجمع البحوث الاسلامية . وادارة البعوث الاسلامية .

فالأزهر يستطيع عن طريق مبعوثيه المنتشرين فى سائر البلاد الاسلامية ان يؤدى هذه المهمة خير أداء(١) ..

والله الموفق الى مافيه خير البشرية جمعاء



---

(١) ...الة ـ العدد ١١٢ ـ أول يوليو ١٩٦٥ م .



رقم الايداع بدار الكتب ١٠٤٢١/٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6757 - 6